كتاب المعجز

وتشتمل على :

١- تحليل الكتاب.

٢- ترجمة المؤلف ووصف المخطوطات.

٣- نماذج من المخطوطتين.

٤-نص الكتاب.

obeikandl.com

تحليل كتاب المعجز
للإمام القاسم العيانى
ت ٤٠٤ هـ

obeikandl.com

بدأ القاسم العيانى كتابه المعجز بالحديث مع **الملحدة، الذين** مجدوا وجود الله فقالوا **بقدم الهواء وغيره**، ومن ثم قدم أشياء مادية إلى جوار الذات القديمة، فلا معنى إذا للقول بإله قديم واحد أحد[١].

ثم أعقب ذلك بباب آخر فى **الدلالة على حدث الأجسام**[٢] وهو فى هذا كله يستخدم أدلة الفلاسفة والمتكلمين فى إثبات الحدوث والقدم والتناهى والحركة والسكون.

يقول فى بيان صنع الله وحكمته : "**إن أعظم الدلائل** على الله، سبحانه وعز عن كل شأن شأنه، ما فطر من الأرضين والسموات العلا وصنع منهما تبارك وتعالى[٣].

واستعان فى بيان صنع الله فى السموات والأرض وحكمته وتقديره **بدليل الصنعة والإتقان** والكمال، وكذلك النظر فى النفس والآفاق والأكوان يقول :" فلعمرى لو لم يكن لنا من النظر إلا ما فى أنفسنا من الآيات والعبر؛ لكان لنا فى ذلك كافية وأدلة واضحة شافية[٤]".

ألا ترى إلى ما بث الله من الخلق، وما بسط لهم بعد خلقتهم من الوزق، الذى لولا هو لهلكوا ودمروا ولما تناسلوا ولا كثروا، ولما تم بقاء ولا صيروا، ثم جعل للمتعبدين عقولا لتكون لهم عليه دليلاً، فسبحان من دلنا على معرفته ...

---

(١) انظر النص من ١-٤ .
(٢) انظر النص من ٤-٢٢ .
(٣) انظر النص ١١ .
(٤) النص ١٦ .

ثم هو يختم هذا الكتاب فى تجليات واضحة فيدعو الله عز وجل فى خشوع وخضوع ومن ذلك قوله :"فيا خالق ويا باسط الرزق، أسألك أن تجعل آخر حياتى وحضور وفاتى، على أكمل ما يكون من طاعتك واتباع مرضاتك[1]".

ثم أفرد الكتاب الثانى بباب واحد هو "**باب السرد على عبدة النجوم وغيرهم من فرق الملحدين[2]**".

وبدأ الباب بتقويم تربوى للعابدين والسالكين إلى الله، بين فيه كيف يكون العبد مؤمنا عارفا خاشعا، فكل الدلائل إلى الله عز وجل تشير، وعلى وجوده ووحدانية شاهدة.

أعقب ذلك بالجواب على ملحد متعنت، يسأل **عن كيفية السبيل إلى معرفة الله، وبم يعرف وما معرفته ؟**

فأجابه بأن السبيل إلى معرفته عن طريق العقل المميز للأمور، وأما بم يعرف فعن طريق صنعه وتدبيره ومعجزته وتقديره، وأما ما معرفته فمعرفته اليقين بألوهيته والإقرار والتصديق بربوبيته[3].

أجاب القاسم عن تساؤل هو أمعرفة الله اضطرار أم اختيار؟ فأجاب بأنها اختيار، ولو كانت الأولى، لما كان بين معرفة الجاهل والعالم فرق.

---

(١) النص ٢١ .
(٢) النص من ٢٢-٥٠ .
(٣) النص ٢٥-٢٦ .

ثم عاد فذكر شواهد عديدة على الله تعالى من أدلة الصنعة والإتقان والإحكام فى خلق الإنسان والحيوان والنبات والسموات والأرض[1].

ففى كل مخلوق لله آية وحكمة ناطقة بخلقه وعظيم صنعته، وفعل الله كل جميل وحسن، والملحد جهل حكمة الله فى الخلق والإيجاد، والمخلوقات شاهدة على أن لها صانع مبدع ويستحيل أن يكون أى منها خالقاً، لما هى عليه من تدبير مدبر وإحكام محكم[2].

واستعان القاسم بدليل **الحركة والسكون والتغاير على حدث المخلوقات**، وأن لها محدثاً قديماً، واستحالة أن تكون الصدفة أو العشوائية هى مبعث هذا الإيجاد بحال من الأحوال، ولا يقول بهذا إلا جاهل أو مجنون[3].

والدهرية المنكرة للخالق **تسأل عن الدليل على حدوث الدهر والزمان**، والحركة والمادة والحياة فى الأكوان، ومتى بدأت، وهل لحركتها نهاية، وما الذى يمنع من أن يكون بدأ الحركة والحياة من فوق أى من الأفلاك العليا والكواكب والنجوم، ومن هذه الحركة نشأ الخلق؟

---

(١) النص ٢٦-٢٩ .
(٢) النص ٣٠-٣٣ .
(٣) النص ٣٣-٣٨ .

وهذا كلام لا معنى له؛ لأنه ينسب لبعض الخلق ما هو حق لغيرها؛ فإذا كانت الأفلاك العليا هى التى أوجدت الأكوان والعوالم من جماد وحيوان وحركة وسكون، فمن أوجدها؟! ... إن لكل صنعة لابد لها من صانع، وهذا الصانع **يقدر** فى حكمتها أشياء ويصنعها **لعلة**، لا هباء ولا عبثا، فهو قادر حكيم عالم مدبر عدل رحيم كريم[1].

والله عز وجل هو الذى خلق هذا الكون، وما فيه من عوالم علوية وسفلية، **بتقديره وعلمه وعدله وفضله**، وهو الأول والآخر، سخر الأشياء للإنسان وأمره ونهاه، فى غير ما جبر ولا قهر، وتعبده بالطاعة اختيارا، ومن عصاه أنظره رحمة ورأفة، لا ضعفا ولا إهمالا ، ولكن ابتلاء، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، وجعل جزاء من أطاعه الجنة وعدا منه حقا، ومن عصاه النار عقابا منه عدلا.

وخلق الله عباده لينفعهم، ولم يكن منه شئ عبثا، فكيف يكون كل هذا التدبير من مخلوقات لا حول لها ولا قوة ولا علم ولا حكمة ولا تدبير ولا من غيرها، فسبحان الأول بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء، وسعت رحمته كل شئ، وهو العلى القدير[2].

ثم سمى القاسم كتابه الثالث **الطبائع**[3]، ومرة أخرى يسأل الملحدون عن الدليل على حدث السموات والأرضين، ويصل بهم العالم الحصيف، إلى أن

---

(١) النص ٣٨-٤٦ .
(٢) النص ٤٦-٥٠ .
(٣) النص من ٥١-٦٧ .

اختلافهما دليل على حدثهما، ولا يمكن أن يكون هذا الاختلاف من فعل أنفسهما، ولا من قبل قدمهما، لأن الأول محال، والقديم لا يوصف بالاختلاف ولا يتضاد.

كما أن التفاوت فى الخلق يدل على الحدث، وما تشهده الأرض من تنوع سهولها وجبالها وتضاد أحوالها وألوانها يدل على صانعها وجاعلها، إذ التفضيل لبعضها على بعض يدل على المفضل بينها ،كما أن افتراقها واجتماعها، يدل على وجود صانع لها فرق ما فرق منها وجمع ما اجتمع منها[1].

سأل الملحد عن الدليل على حدث أصول المتناسلة وفروعها، وبيان الصنع فى عللها وطبائعها، وأبان القاسم أن السر فى ذلك كله راجع إلى الحكمة، فالحكمة الإلهية هى التى من وراء الخلق، وكل طبيعة من طبائعها قد جعلت لمصلحة من مصالحها،وليست الطبائع بفاعلة للحكمة والتدبير، ولا هى بعالمة بعجائب التقدير، وإنما هى حلمة من حكم رب العالمين، ودلالة عليه لجميع المخلوقين[2].

وأصل الحكمة إصلاح الأسباب بالأسباب، فلما وجدنا الأشياء مصلحة بطبائعها، دلنا الإصلاح على حكمة صانعها، وقد اهتم المسلمون بالغائية والنهاية، **فما الغاية من الخلق والحياة والكون والابتلاء**، وهو الموت، وهو يقع على كل حى مخلوق، هو وفروعه، وكما جمع الحياة بينهم كذلك الموت، فقد جمع الموت فى البدء بين الجميع فى حال العدم، ثم نشأت الحياة وتكاثرت

---

(١) النص من ٥١-٥٣ .
(٢) النص ٥٣-٥٤ .

الأحياء بعجيب قدرة خالقها، ثم أدركها العدم أى الموت، وبين الابتداء والانتهاء تجد معنى المحدودية والمكانية والتناهى والتلاشى أيضا، فمبعث الكثرة **الخلية الواحدة**، وأصل الكثير القليل، والنهاية تدل على البدايات[١].

وعن نشأة **الإنسان** وتزاوجه وتكاثره، وكيف حدثت النشأة ولم خلقنا الله من ذكر وأنثى، وما الذى يحدث عند خلق الإنسان، ثم ما يحدث فى طفولته وصغره ، وكيف ينمو ويكبر، كل ذلك يدل على حكمة الخالق وقدرته ورحمته، والعقل والجوارح والحواس والنمو، كل ذلك لا يمكن الغفلة عنه أو تجاهله، وأقل القليل منه يدلنا على الله العلى القدير، ولكن الملحدين أصيبوا بالعمى والصمم والبكم، وجهلوا أبين البيان على وجود الله ووحدانيته[٢].

***

سأل الملحد كذلك عن علة دوام التكليف وسببه بعد الرسول ﷺ، وطلب أن يكون الجواب من المعقول **لا من المنقول**.. وكان الجواب كما طلب، فالحق تعالى حكيم لا يهمل خلقه دون أمرهم بالخيرات ونهيهم عن المنكرات، وإن فعل ذلك اختار لهم الضلال على الهدى ومن كان كذلك لم يكن رحيما، كما أن الإهمال يدعوا إلى الفساد[٣].

---

(١) النص ٥٥-٥٦ .
(٢) النص ٥٧-٥٨ .
(٣) النص ٥٨-٥٩ .

كما أن من شأن ما ركب الله عز وجل فى عباده من استطاعة، وفطرهم عليه من منازعة الهوى، يدعوا إلى ذلك التكليف؛ لأنه تعالى حريص على خلقه، يحب هداهم ورشادهم ومن ثم كان التكليف صيانة لهم من الغى والضلال[1].

التكليف أيضا يحمل معنى الرحمة والحكمة والحجة، الرحمة من الله بأوليائه، والحكمة فى تصرفه وإنشائه، والحجة على أعدائه، فإذا لم يكن ثمة تكليف كان هذا عيباً فى الحكمة والتدبير، والله برئ عن هذا.

والعباد فى حاجة إلى التكليف، الذى يحمل من الله لهم الرحمة بهم، فى أمره ونهيه وإرشاده، والناس تتنازعهم الأهواء وفطروا على الاختلاف، ومن شأن حكم الله أن يجمعهم على الهدى، وفى ذلك يبقى حكم الله أمام حكم البشر والعلم أمام الجهل، والحكمة أم الرعونة، وهدايات السماء أمام ضلالات الأرض، بها يكون الحق والعدل والمساواة، فهى قانون الله بين خلقه، والحكيم المدبر الرحيم يحب لخلقه أن يغلبوا الجهل والهوى والخلاف، ويتبعوا أمره لأن فيه صلاحهم، وصلاح أمورهم[2].

***

ويرى القاسم أن من الواجب على الله **إرسال الرسل**، بل هو يحدد ذلك فعلى الله أن يرسل فى كل قرن من القرون رسولاً، وذلك لحكمته تعالى، فالحكمة هى التى أملت ذلك الوجوب، وهو واجب على ما أظن أخلاقى لا أكثر.

---

(١) النص ٥٩.
(٢) النص ٦٠.

ومن خلال هذا التصور فى النبوة، استشف القاسم أيضا وجوب أن يخص **بالإمامة** أهل بيت معروفين منسبين، ومن ثم هم آل بيت رسول الله، ولذا يجب مودتهم لقربهم من رسول الله، وجهادهم وحب الله لهم، وعلى رأسهم سيدنا على بن أبى طالب[1].

ثم أقرب قرابة الرسول، ﷺ، هما **السبطان**، ابنا الرسول الطاهران وأمهما وذريتهما من بعدهما، ويشترط فى الإمام من ذريتهما أن يكون أرجحهم عقلا وأحسنهم مِقالا وفعلا، وأشهرهم حكمة وفضلا[2].

ما الحكمة فى خلق الله للضوارى من ذوات السموم والمضار؟

ينبغى أولا بيان أن الخالق حكيم ولا يخلق إلا لحكمة، وهذه الهوام أو الضوارى المخلوقة قد أعطاها الله من الإمكانيات ما يساعدها على العيش والاستمرار فى الحياة، وفيها من العجائب ما تعجز الأفهام عن إدراكها أو الحديث عنها، وكذلك الذرة كيف تحس وتدرك وتفهم وتعيش[3].. إلخ.

أما ما ينال الآدميين من ضرر الهوام، فأجر المسلم فيها عظيم، ويحمل معنى التخويف والعبرة والعظة، والحجة على الفاسقين، والألم يدعونا إلى تذكر الموت والفناء، والزهد فى الدنيا.

---

(١) النص ٦٠.
(٢) النص ٦٠-٦١.
(٣) النص ٦١.

وكما أن الصحة نعمة، فالمرض والألم بلاء ومحنة، فالحمد لله على عطائه وسرائه وضرائه[1].

فهل يعوض الله البهائم عن آلامها عندما تألم بالموت والأسقام، وقتل بعضها لبعض؟.. يرى القاسم، والزيدية جميعاً، ذلك، فعدل الله وحكمته ورحمته تدعو إلى ذلك، وجديرة بألا تفوت على مخلوق مصلحة هو يستحقها أو عوضاً هو له[2].

ورد على **المجبرة** ومن ادعى أن البهائم بعد الحشر تكون تراباً، ولا يجعل الله لها على ألمها ثواباً، وهو جهل وبعد عن اليقين، وعدم فهم للعدل وإفناؤها ضد العدل والحكمة والرحمة وقاعدة العوض والمنفعة التى ارتضاها الله لعباده[3].

سأل الملحد أيضا **عن دوام التخليد فى الآخرة**، وهى متعلقة بالوعد والوعيد، وتحقيق الله لما وعد به المؤمنين من الثواب والجنان، ووعيده للكافرين بالنيران، والله عز وجل صادق فى وعده ووعيده، وهو من الحكمة والعدل، وقد قال العدلية بوجود الوعد والوعيد، ولم يستثنوا من ذلك أحداً.

وقد رد القاسم على من قال بأن له تعالى، أن يخرج من أهل النار من يشاء بفضله وشفاعة النبى ﷺ وبعض عباده المؤمنين، الذين يأذن لهم بتلك الشفاعة[4].

---

(١) النص ٦٢-٦٣٠
(٢) النص ٦٣ .
(٣) النص ٦٣-٦٤ .
(٤) النص ٦٤-٦٥ .

وتساءل القاسم **كيف يخرج الله الكافرين أو الفاسقين العصاة، أصحاب الكبائر**، من النار بعد أن دخلوها عقاباً على ما فعلوا، أو ليس هذا إخلاف لوعيده، **وإبطال لعدله وحكمته**، من كون الجزاء من جنس العمل، كما أن ذلك يطمع الكافرين والفاسقين بالغى **والبطر** والفساد اتكالاً على أن الله سيخرجهم من النار بعد دخولهم فيها، وفى ذلك نقص لما أنزل، من كونهم خالدين فيها أبداً وإبطال لعلمه لقوله فيهم مكذباً ﴿**ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون**﴾.

ثم كيفَ يتحقق الردع والزجر الإلهى للكافرين والفاسقين، فيؤمن من أبى ويطيع من عصى، إن كان مصيره فى النهاية إلى الجنة[1]؟!

كذلك سأل الملحدون **لم لا يهلكهم الله ويفنيهم ويميتهم فى النار**، بدلا من دوام التخليد فيها، سيما وأن ذلك يتناقض مع رحمته التى ذكر فى تنزيله أنها وسعت كل شئ؟

وفى ذلك مخالفة لوعده ووعيده وعدله، والمخالف ليس بحكيم ولا صادق مما يدل على النقص بين الجميع. ثم إن فى إماتتهم راحة لهم، وتخليصاً لهم من العذاب، وتفريجاً لكروبهم، بعد قتلهم الرسل وعباد الله المؤمنين، وما اقترفوه من فساد وطغيان، ولهو وفجور[2]..

---

(١) النص ٦٥-٦٦ .

(٢) النص ٦٦ .

والعذاب فى النيران درجات، فكل ظـــالم بحســب ظلمــه وجبروتــه وطغيانه، فإبليس وفرعون وهامان وقارون فى مرتبة مختلفة عن غــيرهم مــن الكافرين، من قتلة الأنبياء والرسل والأولياء والأئمة الطاهرين، وكذلك العصـــاة فى درجة أخف من درجة السابقين، ولله حكمة بالغة لا يدركها الجاهلون.

فلا ينبغى أن يطمع جاهل، كفر وفجر وعصى واستكبر، فى أن يخلــف الله وعده أو وعيده، فهو صادق حكيم، لا يكذب ولا يعبث فى أقواله أو أفعالــه، وأحكامه ماضية، فلا يمنين كافر نفسه، أو عاص قاتل للأئمة والناس بلا جريــوة إلا الاستبداد والطغيان، وبداوة البداوات على رأسه، من جراء شهوات نفســه، أن يعفو الله عنه، ولم يتب ولم يقتص منه فى الحياة الدنيا، فمن شاء مغفرة الله لـــه فعليه بقضاء الحقوق إلى أهلها قبل أن يدركه الموت؛ فيقول ﴿**رب ارجعــون، لعلى أعمل صالحا فيما تركت**﴾ وهو كاذب، فيرد عليه المولى :﴿ **كلا إنــها كلمة هو قائلها، ومن ورائهم برزخ إلى يوم يرجعون**﴾[1].

وجاء الكتاب الرابع من المعجز للقاسم العيانى تحت عنوان **كتاب شواهد الصنع والدلالة على وحدانيته تعالى وربوبيته**"[2] واشتمل على خمسة أبواب هى على النحو التالى :

١-**باب الدلالة على الله عز وجل**. ويدور حول مبحث الوجود.

---

(١) النص ٦٧ .والآيتان سورة المؤمنون ٩٩-١٠٠ .

(٢) النص من ٦٨-١٠٥ .

٢-**باب الدلالة على صنع الله فى الحيوانات**. ويدور على مشاهدة الآثار والإتقان والحكمة.

٣-**باب الدلالة على نفى الصفات عن الخالق** والدليل على قدمه، ويدور حول نفى الصفات السلبية، كالحدوث والمادة والجسمية والعرض والماهية والمكانية والولد وما شابه ذلك.

٤-**باب الدلالة على نفى الصفات عن الله فاطر السموات**. ويدور حول بيان أن الصفات هى عين الذات، وليست متغايرة ولا منفصلة عنها.

٥-**باب الدلالة على التعبد**. وهو مبحث فى التكليف والبعث والنشور والجزاء والإمامة وحق آل البيت فى ذلك.

وفى صدر الكتاب الذى ذكره القاسم، ودار حول **شواهد الصنع، والدلالة على وحدانية الله تعالى وربوبيته**، يقول بعد المقدمة والحمد والثناء على الله ورسوله: "إن الله جل ذكره، تعرف إلى خلقه بإيجاد ما أوجد من بريته وصنع وبرأ بمشيئته، ثم أوصل إليهم العلم بربوبيته، بما أظهر لهم من أعاجيب فطرته، وشواهد صنعه وآياته[١]".

(١) فى باب **الدلالة على الله، عز وجل**[٢]، بدأ القاسم بسؤال الملحد الذى سأله **ما الدليل على الله رب العالمين ؟**

---

(١) النص ٦٨ .

(٢) النص ٦٩-٧٩ .

وهذا السؤال يجوز أن يسأله غير الملحد، الباحث عن أدلة الوجود ليهتدى إلى به، أو يستدل على هذا الوجود، فكيف تستدل على وجود الله، إذن يرى القاسم أن هناك ستة أوجه يمكن بها الاستدلال على وجو د الله على النحو التالى :

١-أن يكون الإنسان قد خلق نفسه.

٢-أو يكون قديما لم يزل.

٣-أو يكون حدثا لعلة من العلل.

٤-أو يكون هملا رسلا لا من علة ولا من خالق.

٥-أن يكون متولدا من إنسان وإنسان من نطفة إلى ما لا نهاية له، ولا أصل ولا غاية ولا أول.

٦-أن يكون من خالق محدث قديم حى[١].

وقد أبطل القاسم كل هذه الوجوه، عدا وجه واحد هو الصواب، إما للدور أو التسلسل أو الاستحالة، وبقى الاستدلال السادس هو الوحيد الصواب، أن الإنسان خلق وخالقه قديم، ومن ثم كان هذا القديم هو الله عز وجل[٢].

كما استعان بدليل الحكمة والإتقان والفروع والأصول، ودليل النهاية والغاية والتحديد والتناهى، ودليل الحياة والموت، وهكذا كل هذه الأدلة تدل على حدوث الجسم وقدم الخالق[٣].

---

(١) النص ٦٩ .

(٢) النص ٧-٧١ .

(٣) النص ٧٢-٧٤ .

رد القاسم على دعوى أنه **ما الذى يمنع من أن يكون لم يمت من هذه** الأصول إلا وقبلها أموات إلى ما لا نهاية، كذلك تناقض الملحد حين قال بأن الإنسان محدث ثم يعود مرة أخرى فيقول **هو قديم**[1]، فكيف يكون محدث وقديم فى الوقت ذاته؟

وركز القاسم على **دليل الحركة والسكون والتناهى**، ويختم هذا الباب بقوله : "إذا لم يكن **الجسم**، كائنا ما كان، من الأشياء، لم ينفك من هذين الحالين، فهو محدث بأبين البيان، وإذا كانت الأعراض لا توجد إلا فى الأجسام، وكان محالا أن تكون قبلها، فسبيلها فى الحدث سبيلها؛ لأنا نفينا أن يكون علة كون الإنسان، وغيره من الحيوان، جسما أو عرضا، لأنهما محدثان، فلما بطل أن يكون علة كون الإنسان، وغيره من الحيوان، جسما أو عرضا أو عدما، صح أن له صانعا قديما، وهو الله رب العالمين[2].

ويبدو أن القاسم ألزم نفسه، والتزم تماما، بالاستدلال بالمعقول، ولم يتطرق إلى المنقول تماما

***

(٢) كما جاء الباب الثانى من هذا الكتاب ليحدثنا القاسم عن **الدلالة على صنع الله فى الحيوانات**[3]، ويبدو من العنوان أنه سيلزم نفسه بأن يتحدث عن آثار صنع الله وإعجازه فى خلق الحيوانات، فلننظر هل التزم بذلك أم تجاوزه.

---

(١) النص ٧٥ وما بعدها.
(٢) النص ٧٩ .
(٣) النص من ٧٩-٩٣ .

بدأ مقالته بسؤال من سائل، وهو تقليدى لدى الفلاسفة والمتكلمين، واعتادوا عليه، سواء وجد هذا السائل أم لا وجاءت فحوى **السؤال ما الدليل على الله عز وجل ؟**

وكما جاء السؤال بسيطا، ومضمونه كبيرا جدا، بحجم الفلسفة الإنسانية فى مسائل الوجود والإلهية، كذلك كان رد القاسم حيث قال : **أقرب الأدلة إلى الإنسان نفسه**، وذلك أنا نجد الإنسان بعد عدمه، فنعلم أن له موجودا، أوجده بعد عدمه، لم يجد فى نفسه حكمة، ونجد عليه نعمه، ولا تكون الحكمة إلا من حكيم، ولا النعمة إلا من منعم كريم"[1].

ما الحكمة التى فى خلق الإنسان وما النعمة التى عليه ؟

أما الحكمة التى فى خلق الإنسان هى الصنع، الذى لا يكون إلا من صانع حكيم، وأما النعمة فالرزق المبسوط، الذى لا يصح إلا من رازق من كريم.. وهذه نعم محكمة، لا تكون إلا من حكيم عليم، وتدبير لا يكون إلا من مدبر قديم، ورحمة لا تكون إلا من رحيم[2].

والدليل على ما ذكرنا من العلم والحكمة والرحمة، أن الرحمة هى الفضل والنعمة، وأن الكريم هو الباسط للمنافع عند الحاجة والفاقة، وأن ذلك لا يكون إلا من عالم حكيم[3].

---

(١) النص ٧٩-٨٠ .
(٢) النص ٨٠ .
(٣) النص ٨٠ .

وبدأ القاسم فى الغوص فى الإنسان وتكوينه، منذ أن كان **نطفة**، وما حدث فى الرحم، وكيف يتطور الخلق فى داخله، من مضغة وعلقة ثم عظام ولحم، وكيف يضع الله فى الإنسان أدق تفاصيل التفاصيل، وعندما يخرج إلى الحياة، وعطاءات الله له من رزق، وتعهد وتربية ونمو، يقول: "**فبينما نحن** نطف حقيرة أموات، إذ نحن على غاية الكمال، من توصل الأجساد والأوصال، والحياة بعد موتنا، والتكثير بعد قلتنا، والعقول بعد غفلتنا ... فلما نظرنا إلى هذه الحكمة البالغة والنعمة السابغة، **علمنا أن الحكمة صفة الحكيم**، لما فيها من بيان علم العليم، والصفة لا تكون إلا لموصوف[1]".

والعقل شاهد على حكمة الله فى الخلق.. أما كيف تولدت هذه الحكمة، فإن قال: حدثت من علل قديمة حية حكيمة مدبرة، فهذا هو صفة الخالق، **والخالق ليس يسمى عللاً**. وإنما هو الله الذى لا إله إلا هو العليم الحكيم.

واستعان بدليل الحركة والسكون، والحدوث والقدم، على بيان أن الحكمة أو العلل محدثة، وما لم ينفك من الحوادث فهو حادث، وبذلك صح الخالق المحدث[2].

يقول القاسم : "**إنما سميت الحكمة حكمة لأنها محكمة، والحكيم** فهو المتقن المبرم، **والإتقان** والإبرام فلا يكونان إلا بعلم وإحكام .. وهكذا يتسلسل حتى يكون ذلك كله من الله ذى الجلال والإكرام[3]".

---

(١) النص ٨٣ .
(٢) النص ٨٧ .
(٣) النص ٨٩-٩٠ .

والحكمة تضاف إلى حكيم، وكفالة الحيوانات لأولادها، وطلبها للنكـــاح والمآكل والمشارب، وجميع منافعها ومصالحها، يدل على أن ذلك من حى حكيم، **كما أن خلق الله للعقول من أدل الدلائل على خالقها**[1].

***

(٣) جاء فى الباب الثالث ليعالج فيه القاسم قضية الصفات الإلهية، تحت عنـــوان "باب **الدلالة على نفى الصفات عن الخالق والدليل على قدمه**[2]، والعدليـــة جميعاً معتزلة وزيدية، ومن قال بمقالتهم من الشيعة، على أن الصفات هـــى عين الذات، فليس هناك ثمة صفات مغايرة أو مستقلة عن الذات، وبدا كـــلام بعضهم وكأنهم ينفون الصفات، ولكن الحقيقة هم يثبتون صفات هى عيـــن الذات غير مستقلة عنها، وهم بذلك يخالفون **الأشاعرة والكلابية**، أو لنقـــل الصفاتية جميعاً، ليدخل فيهم **الكرامية والنجارية**، وقد اعتقد بعض المتكلمين فى القديم والحديث، أن هذه القضية مفتعلة أو لفظية، والمخالفـــة لا تتعـــدى اللفظ ، أما أنهم يتفقون فى المعنى، فهو ما يقول به الكثيرون منهم.

صدر القاسم هذا الباب ببيان أن الخالق يخالف المخلوق فى كل شئ، ولا يشبه فى وجه من الوجوه، ولو أشبه المخلوق فى بعض صفاته لاشترك معه فـــى الحدث، والحدث لا يتعلق بقديم، وهذه الصفات التى قصدها القاسم هنا **الصفـــات السلبية**، مثل الحدوث والتغاير والحركة والسكون والجسمية والجوهر والعـــوض

---

(١) النص ٩٢ .

(٢) النص من ٩٣- ٩٦ .

والحدود والتناهى والمكانية، وغيرها من الصفات التى هى من خصائص المادة أو المخلوق أو الحدث[1].

***

كما تساءل الملحد **لم لا يكون الخالق نفسه مخلوقاً**، وكذلك خالقه إلى ما **لا نهاية**؟.. وهو سؤال الدهرية تماماً، الذين يعتقدون الوجود حلقة و دائرة ولا أثر للخالق فيها، وإذا ما فنى الوجود لا يعود. وأحال القاسم هذا الافتراض؛ لأن حدوث الخالق يجعله **مثلاً** فى الصفات مع غيره، فلا ينماز عنهم، كما أنه لا **يساوى** بينه وبينهم، مما يبطل الألوهية فى حق الجميع[2].

كما لا يجوز أن يكون الخالق **آخر المخلوقات**؛ لأنه يخالف فكرة الحدوث والقدم، وكون بعض المخلوقات قديم، والآخر محدث، وكل محدث يحتاج لقديم أحدثه، كما أنه من وجه آخر يتناقض، لأنه يقتضى التسلسل إلى مالا نهاية، ويستحيل آخر بلا أول[3].

واستعان القاسم بفكرة **السبر والتقسيم** فى إبطال تساؤل الملحد، فهو إما محال أو يقتضى التناقض أو العدم أوالتناهى، ومثال ذلك قوله :"إن هذه الأرباب المخلوقة التى زعمت محدثة، وإذا كانت محدثة، فيستحيل قولك : خلقت أمثالها؛ لأن المخلوق لا يقدر على خلق مثله، ويستحيل أن تكون الأجسام من فعله[4]".

---

(١) النص ٩٣-٩٤ .
(٢) النص ٩٤ .
(٣) النص ٩٥ .
(٤) النص ٩٥-٩٦ .

(٤) أما الباب الرابع فكان أيضا حول الدلالة على نفى الصفات عن الله فـــاطر السموات[١] وفيه يرد القاسم على تساؤل مفاده : **هل لله صفات؟**

ولأنه يؤمن بالمنهجية فى الطرح وجه السؤال نحو المقصود منه، فـــإن كان المقصود منه أن لله صفات هى غيره فلا، أما إن كان المقصود هـــو أن لله صفات هى هو فهو أمر مقبول[٢].

وأخذ القاسم يبين لم لا يمكن أن تكون لله صفات هىغيره؛ لأن ذلك يعنى أنها متعلقة به، وهو محل لها، أو مباينة له، وهذا يعنى الاشتراك والتعـــدد فـــى القدم، وكلا الأمرين محال على الله.

كما أن التعلق يفيد المكانية، ولو تعلقت بجزء دون جزء؛ لكان ذلك يعنى أن هناك ما يحل بأجزائه، بعضها دون بعض، وفكرة الكل والبعض تعنى التفرق والتجمع، والحركة والسكون، وهو من خصائص الأجسام[٣].

إذن فصفات الله هى هو، فهو واحد ليس معه شئ يعلم بـــه ولا يقـــدر، ولكنه غنى حكيم عالم قادر حى بغير معان سواه.

والتساؤل الذى يترتب على ماسبق، كيف علمتم أنه حى **عالم قادر**، بـــل كيف عرفتموه هو لا يرى؟..

---

(١) النص من ٩٧-١٠٠ .
(٢) النص ٩٧ .
(٣) النص ٩٧ .

والقاسم لا يتردد فى طرح أدلته، فالله، عز وجل، حى لأنه حكيم أتقن صنعته، وذلك لا يتأتى من ميت، وهو عالم لإحكامه الصنع أيضاً، والصانع لا يفعل إلا بعد علمه بالمصنوع، وهو قادر أيضا؛ لأنه أبدع من عدم، واخترع من غير أصل، وتلك صفات القادر لا العاجز[1].

ويبقى أن نشير إلى أن القاسم قد أجاب على تساؤل: فكيف يعقل شئ ليس بجسم ولا عرض، ولا له كل ولا بعض ولا طول ولا عرض؟.. بأن أجاب بقوله : "يعقل بما أظهر من صنعة الجليل الذى لا تمتنع منه العقول، ولا توجد إلى دفعه سبيل" هذه إجابته، واعتقد أنه أوجز أيما إيجاز فيها، وكان ينبغى أن يفضل القول فيها.. حيث جاء السؤال "بكيف" ولا يسأل عن الإلهية "بكيف" أبداً[2].

وتطرق إلى التساؤل عن المعرفة، فبم عرف المؤمنون ، سيما وهم لا يرونه؟ لم يجد القاسم صعوبة فى بيان أن العقل هو مفتاح تلك المعرفة، وهو قادر على إدراك الإلهية، إدراكاً لا يقبل الفساد ولا المحال، وذلك عن طريق تأمل آيات صنعه فى الأشياء والأكوان، والحيوان والنبات والجماد، والنفس البشرية، وهى تدل على حتمية أن يكون هناك حكيم عالم قادر حى مبدع، صنع وأبدع وأتقن، ويستحيل أن تكون هذه المخلوقات قد خلقت نفسها، أو خلق بعضها بعضاً، لأنه لا يقبل عقلاً، ولا يسع عاقل المعنى فى إنكار وجود خالق لهذه الكائنات، له صفات الكمال والجلال والجمال وهى ذاته[3].

---

(١) النص ٩٨-٩٩ .
(٢)النص ٩٩ .
(٣) النص ٩٩-١٠٠ .

(٥) أما الباب الخامس جاء تحت عنوان **الدلالة على التعبد**[١].

فما الدليل على التعبد؟.. وجود القدرة والاستطاعة.. فلم وجدت الاستطاعة؟ لأنك إذا قدرت وعملت خيراً لك من أن تكون عاجزاً جاهلاً، **فلم كلف الله عباده ما يستثقلون؟** لبيان الفرق بين المطيع والعاصي والمؤمن والكافر.. وهكذا يصل بنا إلى الجزاء وبيان أن خلق عباده حسن، وإن كان فعلهم قبيح[٢].

فما الدليل على البعث؟، ولم خلقهم فى بدء المعنى، ولم يظهر الحكمة؟، ولم كان إظهار الحسن خير من تركه، فمن أين جاز الشرع، وكيف جاز التنبؤ لبعض الخلق دون بعض؟، ولم كان ختم النبوة **بمحمد** ﷺ؟ ، وهل الإمامة أصل فى العقول؟، **وما الظاهر من الخلق وما المضمور الخفى؟**(٣).

وهنا نتوقف عند هذا التساؤل؛ لأنه غير تقليدى، ولكنه يمثل أحد عقائد الشيعة الراوفض والذى **تبناه** القاسم من الزيدية حيث يقول : "**أما الظاهر** فالسابق المنذر لجميع الخلائق، والشاهد لسفله المصلح لله فى عباده وبلاده.

وأما المغمور فالمقتصد المحتج لله فى جميع العباد، الآمر بالمعروف والناهى عن الفساد بغير قيام ولا جهاز"[٤].

---

(١) انظر النص من ١٠٠-١٠٥ .
(٢) النص ١٠٠ .
(٣) النص ١٠١-١٠٢ .
(٤) النص ١٠٢ -١٠٣ .

فهل الإمامة فى أهل بيت دون غيرهم، أم هى فى جميع الناس كلـهم؟.. ومن أولئك؟ فهل لهذه الحقيقة أصل فى المعقول[1] ؟

كيف نعقل أن تكون الإمامة فى قوم دون سائر الأنام؟ [2] وقد لا يكـــون ثمة سائل فى هذه الجزئيات الأخيرة على وجه الخصوص، ولكن البناء الفكـــرى للثقافة الزيدية، يربط بين التكليف والنبوة والبعث والجزاء والإمامة، برباط وثيق شديد. وينتهى إلى أن قضية الإمامة إحدى قضايا العقيدة، التى ينبغى أن يستوثق منها المسلم ويعمل فيها عقله، ويزاوج بين المعقول والمنقول فيها؛ ليهتدى إلـــى الحقيقة التى لابد فيها عند الزيدية..

***

وشمل الباب الخامس على ثمانية عشر باباً، وجاء تحت عنوان "**كتـــاب الرد على الملحدين وغيرهم من فرق الضالين**"[3]، ليعالج الأبواب التالية :

١-باب الرد على **الدهرية**.

٢-باب الرد على **أصحاب الكون**.

٣-باب الرد على **أهل الإلحاد**.

٤-باب الرد على **أصحاب الطبع**.

٥-باب الرد على **عبدة النجوم**.

٦-باب الرد على **الثنوية عبدة النور والظلمة**.

٧-باب الرد على **المتجاهلة**.

---

(١) النص ١٠٣ .

(٢) النص ١٠٣ وما بعدها.

(٣) النص من ١٠٥- ١٥٣ .

٨-باب الرد على من **جحد النبوة**.

٩-باب التوحيد.

١٠- باب الرد على **الفضائية**.

١١- باب المعرفة.

١٢- باب الرد على من **أنكر قول آل محمد، صلوات** الله عليهم.

١٣- باب الحقائق.

١٤- باب الرد على من **جحد نبوة محمد، صلى الله** عليه وآله.

١٥- باب الرد على من **جحد الإمامة**.

١٦- باب الرد على من زعم أن الإمامة بعد النبى، صلى الله عليه وآله، فى ذريته، وفى غيرهم من الأمة.

١٧- باب الرد على **الإمامية الرافضة**.

١٨- باب الرد على **الإمامية فى صفة الإمام**.

ويلاحظ على هذه الأبواب أنها جاءت فى أغلبها مطابقة للكتاب وموضوعه، فعنوان الكتاب فى **نقد من ألحد**، والأبواب تبين طبيعة هذا الإلحاد، هل هو إلحاد فلسفى أم بإنكار جزء من الدين أم بنسبة الإلهية لغير الله، أو لله وغيره وهكذا.

كما انفرد هذا الباب بتخصيص ثلاثة أبواب مستقلة **عن التوحيد والمعرفة والحقائق**، وهى أبواب فى مناهج أصول الدين، أو لنقل نظرية، لا يرد فيها على فرقة من فرق الإسلاميين أو غيرهم.

وقد غلب على بعض الأبواب الطابع السياسى، كالباب الثانى عشر والخامس عشر والذى يليه، والثامن عشر.. وهذه الأبواب الأربع رأى القاسم أن المجادل فيها، والمنكر للإمامة فى آل البيت، ملحد ينبغى الرد عليه فى هذا الكتاب.

عموماً يتسم تفكير القاسم بالمنهجية والتنظيم والانتقاء الصائب، وبالإطلال على هذه الأبواب سيتضح لنا ذلك بجلاء.

صدر كتابه الخامس بافتتاحية، حمد الله فيها وأثنى عليه الثناء الجميل، وصلى وسلم على سيدنا محمد، ثم أعقب ذلك بذكر بعض عقائد الزيدية إجمالا، وانتهى إلى الغرض من الكتاب، **وهو الرد على من أنكر الصانع من الدهرية الكفرة، والثنوية المتوهمين**، وسوى ذلك ممن شابههم وسار على دربهم من المتحيرين، وهو استهلال موقف، وعمل يدل على مدى النضج فى التأليف والطرح، يحسد عليه[1]؛ ولذلك سنستعرض أبوابه بإيجاز :

١-باب الرد على الدهرية :

ما الدليل على صنعة الله فى الإنسان؟

كل ما فى الإنسان دليل على صنعة الله فيه، فأصله كان من الطين، ثم تناسل من خلال النطفة، التى لا ترى بالعين المجردة، تدخل إلى الرحم فى رحلة تدل على انتقائية وإعجاز واختيار من الخالق المبدع، فمن بين ملايين الحيوانات المنوية، يسبح حيوان واحد إلى حيث شاء الله له أن يستقر، ويقدر الله

---

(١) انظر النص ١٠٥-١٠٨.

له الوصول إلى قراره، وكأنه يعرف ما سينتهى إليه من خلق.. ويلتقى مع البويضة المخصبة، والمخصصة له من دون آلاف البويضات المخصبة، ويتزاوجا ويدخلان الرحم، ثم يبدأ تطور هذا الخلق ما بين علقة، إلى مضغة وعظام ولحم، حتى يصل إلى الكائنية الكاملة والخلقة التامة... إلخ.

وهذا هو دليل **التأمل فى النفس**، كيف وجدت، وقراءة آيات الإعجاز فى الإنشاء الإيجاد، ثم النمو والتربية والتكوين والاكتمال، بعد ذلك يصل الإنسان إلى طور الرجولة والكهولة ثم الموت[1].. إلخ.

ولقد أنشأنا من عدم، وأوجدنا من لاشئ ودون سابقة ولا معنى لمن قال أن الأشياء قديمة بأعيانها، حديثة بأحوالها، وهو ما يسمى عند الفلاسفة الإيجاد بالفعل، بعد أن كانت الأشياء موجودة فعلاً بالقوة فالمادة قديمة وتخليق المادة وتصنيعها حديث!.. هذا هو سخف **الدهرية** وهرائهم الممجوج فكيف يصير القديم محدثاً أو العكس، إنه التناقض والاستحالة، فلا قديم يجرى فى حادث ولا العكس؛ وآيات الصنعة شاهدة على الحدوث، ولا معنى لمن قال إن المادة قديمة العين حديثة الأعراض، لأنها كانت قديمة فمن أحدثها، وإن كانت حادثة فمن أوجدها.. والقديم تعالى عن صفات المادة بحال من الأحوال[2].

---

(١) انظر النص ١٠٩ .

(٢) النص ١٠٩- ١١٠ .

٢-باب الرد على أصحاب الكون :

يبدو أن القاسم كان ناقماً على النظام فى قوله بنظرية الكمون، وهى نظرية ذات جذور قديمة ضاربة فى الفلسفة اليونانية، سيما عند الدهريين منهم، وهى متممة للقول بالدهر، فالأشياء لم تزل موجودة بجميع صفاتها، وهى كمائن فى أعيانها، فالشجرة فى البذور كامنة، وكذلك النخلة فى النواة، والإنسان فى النطفة وهكذا هلم جرى[١].

ويرى القاسم استحالة الكمون وبطلانه، فالأشياء كانت معدومة قبل وجودها فى أصولها، وبعد إنشاء هذه الأصول، فالنطفة قبل أن تكون نطفة كانت معدومة خلقها الله من لاشئ، وكذلك العلقة والمضغة بعد ذلك، واللحم والعظام والصورة التى أنشأها الله، والحركة والسكون والحياة، كل ذلك كان معدوماً فأوجده الله، ولم يك شئ كامناً فى شئ[٢].

فما أوجده الله من مخلوقات وأنشأه فمن العدم كان، ثم ألف بين أجزائه وجمع بحكمته وإتقانه وعلمه، فالحياة والموت منه، والكون بما فيه من بدائع الصنع، ولا يوجد شئ فى شئ ابتداء[٣].

فالعلل فى حد ذاتها لم تكن ولا تكون أبداً خالقه، وإنما الصانع الحكيم القادر المبدع العليم، هو الذى يخلق بعلمه وقدرته وإبداعه وحكمته، فالنطفة أنى

---

(١) النص ١١٠ .
(٢) النص ١١٠ .
(٣) النص ١١١ .

لها أن تكمل ما صنعه الله من هيئة الإنسان وصورته وحياته، فهى فى صورتها مجرد مادة أولية، يصلح أن يبتدأ بها الخالق صنع الإنسان، ويمكن أن تهلك ولا يكون منها شئ[1].

لقد خالف الله بين الأكوان، وهذا التناقض والتخالف والتباين من صنع خالق عليم حليم مدبر، فمن يفعل ذلك حكيم، ومن يحدثها بكل هذه التفاصيل مبدع مدبر.

ويعود القاسم مرة أخرى إلى بيان الإعجاز فى الحواس البشرية، وأثرها فى التمييز بين الجسم المادى، والعقل بمراكزه المختلفة، فاليد آية من آيات الله من حيث كانت آلة فى الاستخدامات المختلفة، كذلك حركة الحواس فى اتجاهاتها المختلفة، وفوق هذه الأجهزة المخلوقة تكمن آية أخرى فى الخلق، وهو التوائم والانسجام، بما بث فى هذه الله من الاستطاعة فى النفس، فيكون الاختيار الذى تتعلق به قضية الجزاء والثواب والعقاب[2].

إذن الإنسان جزء لا يتجزأ من هذه الأكوان، وكل هذا الكون متجه إلى الله خالقه، ولا يمكن أن تكون العلة خالقه أو أنه تعالى قد خلق أصل الأشياء ومادتها، ثم جعل نماءها وتطور خلقها وتربيتها، إلى ما كمن فى أصولها، إذ إن له فى كل لحظة من لحظات الزمن إعجازاً فى المحدث، وما يبدو من ناموس وقانون الخالقية، هو مجرد انبعاث منطقى، وعلية تشير إلى أصل الحكمة العظمى، التى تصدر عن أصل واحد وهو الله.

---

(١) النص ١١١ .
(٢) النص ١١٣ .

٣- باب الرد على أهل الإلحاد فى التولد :

لا نهاية لشئ من الأشياء، ولم تزل النطفة من إنسان، وإنسان من نطفة، وبيضة من طائر وطائر من بيضة، إلى مالا نهاية، ولم تزل الحبة من سنبلة، وسنبلة من حبة، إلى مالا نهاية له ولا غاية[١].. هذا هو قول أهل التولد من الفلاسفة، والإسلاميين كالمعتزلة فى قول **المردارية والنظامية والبشرية**.

فلم لم تكن الحيوانات مثلاً لم تزل قد حدثت شيئا من شئ.. هكذا إلى مالا نهاية له ولا غاية؟

وهو تساؤل متناقض جمع بين القدم والحدوث، كما أن الحدوث يحدد الغاية، ويحمل فى ثناياه الغاية فى نفسه..

كما أن التولد يتنافس مع حكمة الحكيم ونعمته على خلقه، وهو ماله بدء له نهاية. وما كان له آخر فله أول، ويستحيل أن يكون آخر بلا أول[٢].

قسم القاسم **الحيوانات** إلى ميتة وحية، والميتة هى الأصل والحية هى الفرع، ولكليهما غاية ونهاية.

- كذلك اعتمد على **فكرة المكانية** والمحدودية، و**الأرض** هى مكان أصول الحيوانات، وما أحاط به غيره فهو محدود.

---

(١) النص ١١٣ .

(٢) النص ١١٤ .

- كذلك اعتمد على فكرة **الحامل والمحمول**، والأرض حاملة، وأصول الحيوانات محمولة، والحامل أكثر من محموله مما يدل على أن لكل شئ نهاية وغاية،
- كذلك **فكرة العدد**، فكل ما ارتبط بالعدد فهو محدود ومتناه؛ لأنه بين الشفع والوتر وهو ما يعنى أن له نهاية وغاية.
- كما أن الأصول قد لحقتها الفناء، وهو يشير إلى النهاية والغاية، والموت يقع على كل معدود متناه محدود[1].

٤- باب الرد على أصحاب الطبع :

يقصد من يقول **بالعناصر الأربعة**، وأصحاب الطبائع قوم من الدهريين القدماء نسبوا الخلق إلى المادة في أصولها الثابتة والرئيسية، كما ارتأوها، وهى الماء والنار والهواء والطين، أو الخير والشر واليبس والرطوبة، والقول الأخير يجمع بين ما هو نفسى وما هو مادى، وعن طريق **الامتزاج** تحدث تفاعلات الأشياء ..

يقول الطبائعيون : "إن الأشياء حدثت من الطبائع الأربع وهى الخير والشر واليبس والرطوبة،عند امتزاجها واعتدالها، ثم نقص من جزء، وزيد في جزء فجاء ضرب غير الأول، ثم على هذا القياس كمثل خضرة وحمرة، وبياض وصفرة مزج بينها، فعدلت حيناً ونقص من جزء، زيد في آخر[2]".

---

(١) النص ١١٥ .
(٢) النص ١١٦ .

ويرد القاسم على تصور الطائعيين بأنه **ظني**، ناتج عن تصورات ذهنية لا يصدقها الواقع والشواهد الكونية، ولا ينبغى أن يقدم الظن على اليقين، كما أن هذه الطبائع بعد الخلق غير فاعلة، فمن أين لها أن تفعل بعد ذلك.

كما أن هذه الطبائع الأربع مجموعة بأمر خالقها، والطبائع وجدت فى حال واحد وعدمن فى حال واحد، فالجسم والعرض لا يمكن أن ينفصلا فـ : "الأعراض لا تسبق الأجسام أصلاً، ولا تنفصل بأعيانها أبداً" (١).

والأعراض قسمان، أعراض تحدث مع الجسم كالطبائع الأربع والاجتماع والطول والعرض والحركة والسكون، وأما ما يحدث بعد حدوث الجسم فمثل الحركة بعد السكون، أو التفريق بعد الاجتماع.. وهكذا، والقاسم يسمى الأعراض كذلك **عللاً**(٢).

٥- باب الرد على عبدة النجوم :

وهم قوم ذهبوا إلى أن دورة الأفلاك وحركات النجوم تتصل بالوجود والعالم المخلوق، إيجاداً و عدماً وكذلك تصريف شئون الكون، وبيدها سعادة الإنسان وتعاسته، وكل ذلك حسب حركة النجوم فى دورات الأفلاك.

وما ذكره القاسم عن عبدة النجوم هو أنهم ينكرون الألوهية، وعليه يرون أن الخلق والوجود ناشئ **من دورة الفلك وحركات النجوم**، والفلك متصل بالعالم

---

(١) النص ١١٧ .
(٢) النص ١١٧ –١١٨ .

كاتصال خيوط الإبرسيم، أى الحرير، بآلة الحوك، أى الخياطة، فإذا دار الفلك على المصنوع **بسعد** تم وصلح، وإن دار عليه بنحس فسد ولا يتم، كما إذا حرك الصانع آلة الحوك الملائمة بين السدى واللحام، أظهر الحوك ما أراد من صورة إما رأس طائر وإما جناحه[1].

وقد رد القاسم على هذا التصور المعيب للألوهية من ثلاثة وجوه :

أولها : أنه قائم على **القياس** بين ما تفعله آلة الحوك بخيوط الحرير، ليصنع منها نسيجاً به صورة محددة على يد الحائك، الذى يديرها، وبين دورة النجوم فى أفلاكها، وما يحدث للإنسان فى الأرض، وهو تصور فج قبيح، وقياس باطل لا يتم؛ لأن الإنسان علة وسبب فى نسج الثوب على الآلة، وإظهار ما يشاء من صور فيه على حسب رغبته، فمن الذى يحرك النجوم فى أفلاكها؟!..

لابد من تسليمهم بصانع لها، ومحرك لها فى اتجاه هو أراده لا هى، من بعد موتها وسكونها، ولو جاز للنجم أن يتحرك بنفسه ليفعل فى العالم ما شاء من صور، لجاز ذلك فى المقيس عليه أن يصنع الحرير نفسه ثوباً دون حاجة للحائك، وهو محال!

والثانى : هو زعم عبدة النجوم أن الفلك يدور **بالسعد والنحس** على الإنسان، فإن دار سعداً سعد الإنسان وتم، وإن دار نحساً فسد ولم يصلح، والواقع يشهد بغير ذلك، وبتكذيب هذه المقولة فكم من دورة للسعد، كما زعموا، دارت على الإنسان والحيوان نحساً والعكس صحيح، وما يصح

---

(١) النص ١١٨ .

وما يفسد، والسعد والنحس كله بأمر الله وتقديره وإذنه ومشيئته، وهـــى شاهدة على إعجاز الله فى صحة، ولا صحته لما زعموه من أن حركات الأفلاك قديمة لا نهائية، وهل يكون قديماً ما أحدث بعد أن كان عدمـــاً، وتحرك بعد أن كان ساكناً؟!(١).

والثالث : هذه الأفلاك مخلوقة وإبان الله صنعه فيها وفى إيجادهـــا.. تصويـــراً وإحكاماً وتقديراً(٢).

- كما أن **الاختلاف** بين أنواعها دليل على حدوثها وعدم قدمها.
- والخالق حى قادر حكيم، مدبر، وتظهر فـــى خلقـــه آثـــار حكمتـــه ودليـــل عالميته.. **والحركات** ليست كذلك، وهى علة متعلقة بأجسام النجوم.
- أما ما يدعيه النجومية من أن حركات النجوم ليس لها أول، فهو قول فاســـد، فما مضى من حركات **لا يحصى**، وقد فنى، وما صح حدثه وصح فناؤه **فلـــه نهاية**(٣).

٦- باب الرد على الثنوية عبدة النور والظلمة :

قالت الثنوية إن الأشياء أحدثها اثنان سميعان بصيران عالمان، فـــالنور يخلق كل خير، والظلمة تخلق كل شر ومكروه وضر، وليس ذلك باختيار، ولكن ذلك **بطباع أزلية**، فلم لا يكون الأمر على ذلك الوضع، ولا ينسب لإله واحد أحد خالق كل شئ؟.. هذا ما ذكره **الملحدون**.

---

(١) النص ١١٩ .
(٢) النص ١١٩ .
(٣) النص ١٢٠ .

- ورد القاسم بأن ذلك مجرد **ظن**، كما أن الخلق تم من خلال إتقان وحكمة، ومحال أن تكون الحكمة من علة من العلل الطبيعية.
- كما أن **تمازجهما** دليل على حدوثهما.
- كما أن العلة فى **تمازجهما** وحركتهما وسكونهما ينتهى بهما إلى ضرورة كون أحدهما إله والآخر ليس كذلك.
- النور والظلمة مجرد **عرضان مختلفان** لابد لهما من غاية ونهاية، وما كان كذلك يستحيل أن يكون خالقا[1].
- البياض والسواد لابد لهما من صانع خالق بين أجناسهما قديم، مما يدل بوضوح على حدوثهما[2].

٧- باب الرد على المتجاهلة(٣).

وهم قوم سوفسطائية ينكرون المعرفة البديهية، ويجادلون فى المعارف المكتسبة، ومنهم الشكاك القدماء، فلا توجد عندهم حقيقة ثابتة، ويشكون فى الإدراك العقلى والحسى، والشك عندهم عشوائى غير منهجى، وإنكار الإلهية والحقيقة هدف فى ذاته عندهم، ولذا أنكروا فيما أنكروا الألوهية وشككوا فى كل الطرق التى يستدل بها على وجودها.

---

(١) النص ١٢٨ .
(٢) النص ١٢٩ .
(٣) النص ١٣٠ —١٣١ .

٨- باب الرد على من جحد النبوة :

وهم البراهمة قالوا **بالإلهية والوحدانية**، وأنكروا الرسالات، وقالوا مـــا أنكرتم **من أن يكون لنا خالق على ما** وضعتم ولم يرسل رسولا؟

واحتجوا بأن الحكيم لا يرسل إليك إلا وهو عاتب، وقد أعطـــى الحكيـــم للإنسان قوة بها يختار بين طاعته وعصيانه، ويفعل بها ما أمر ويترك ما نـــهى، فالحكيم لا يرسل إلا وهو يعلم أن لك قوة إلى فعل ما أمرك، وترك ما نهاك[١].

ولا مانع لله فى إرسال رسل لعباده، وعلمه بمن يعصـــاه ليـــس مانعـــاً لطاعته، والقائل بذلك محيل **لأن العلم هو الله والله حكيـــم**، والحكيـــم لا يمنـــع المطيعين من طاعته[٢] .. والحجة قائمة بعد إرساله على من عصاه داحضـــة لدعواهم، وهو من دواعى الحكمة ..

كما أن حكمة الحكيم لا تمنعه من الإرسال لمن أطاعه من أوليائه إذا علم بمعصية من عصاه من أعدائه[٣].

---

(١) النص ١٣١ .
(٢) النص ١٣١ .
(٣) النص ١٣٢ .

٩- باب التوحيد ونفى التشبيه :

احتدم الجدل بين **الثنوية** والمسلمين بعد فتح بلاد فارس وما وراء النهر، وكانوا يعبدون البد وبوذا ومانى والنار وكل هذه الديانات من مجوسية وديصانية ومرقونية وغيرها من ثنوية، كانت تؤمن بإلهين اثنين أحدهما خير والآخر شر، ولذلك أشاروا إليه بالخير والشر والنور والظلمة وهكذا، ولم يقتنعوا بإله واحد أحد، خلق كل شئ وفعل كل شئ فى هذا الكون، وأرادوا أن يبالغوا فى تنزيه الإله، وأنه لا يفعل سوى الخير، فادعوا أنه خرج من فكرة مظلمة أو شريرة أو رديئة من إله النور أو الخير، إلهاً آخر للشر هو مخلوق له، يسكن العوالم السفلية ويدعو إلى الشر والفساد، ويعمل بهما ويدعو أتباعه إلى مثل ما يفعل، ويصارع الخير فى صورة إله الخير والملائكة العلوية التى هى جنود إله الخير، وانتهى تصورهم إلى أن هذا الإله الشرير الشيطانى هو وجنوده سينهزمون ويسكنون قعر جهنم أو يذبون فى النار، وهكذا جنى عليهم تصورهم التنزيهى المبالغ فيه إلى الانحراف القسرى عن التوحيد الخالص.

وهذا التصور يحمل فى ثناياه متناقضات ومخالفات عديدة ذكرها الله فى حجاج هؤلاء فى كتابه قال تعالى : ﴿**لوكان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا**﴾ سورة الأنبياء /٢٢، وقال : ﴿**قل لوكان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلاً**﴾ الإسراء/٤٢ .

فالاثنان متضادان.. فلا يجتمع العلم والجهل، والعجز والقدرة فى إله، كما أنهما إما أن يكونا حكيمين أو سفيهين، أو أحدهما حكيماً والآخر سفيهاً،

والأول محال والثانى يعنى أنهما ليسا إلهين، والثالث يعنى أن أحدهما إلهاً والآخر ليس كذلك[1].

١٠- باب الرد على الفضائية :

وهم قوم آمنوا **بتعدد القدماء** مع الله، فتصورا أن العالم كان موجوداً فى مادته الأولية فى الفضاء والهواء، قبل خلق الله أى صورة عندهم له.. بل تطرقوا إلى أنه تعالى كان فى الفضاء والهواء، وحكمه حكم الأشياء فى القدم.

والقاسم يرد عليه بأنه، تعالى، جل أن يشاركه فى القدم الهواء أو الفضاء، أو شئ من الأشياء كما أن الهواء أضعف وأخس من أن يكون حاملاً لله، **تعالى**، وهو ما يليق من تصور العبد بربه أن يكون فى محدود، أو على شئ أصلاً أو فى شئ، والله هو **جامع** ومبدع وصانع الهواء وغيره، وكيف يجمل محدوداً متناهياً القديم الواحد الأحد، الذى هو أول ليس قبله شئ، وآخر ليس بعده شئ[2]. والهواء يدرك والله، تعالى، لا تدركه الأبصار، ويحاط به وهو ميت، والله، تعالى، لا يموت ﴿**ولا يحيطون بشئ من علمه**﴾ البقرة/ ٢٥٥ .

الهواء الساكن وربما يتحرك، فمن الذى سكنه أو اضطره إلى الحركة، لابد من صانع فعل ذلك من عدم وكل ما لا ينفك من الحركة والسكون، فهو محدث ويترتب عليه حدوث الزمان والمكان، فكيف يكون قديماً مع الله، تعالى، أو حاملاً له[3]؟!

---

(١) النص ١٣٣ .
(٢) النص ١٣٣-١٣٤ .
(٣) النص ١٣٤ —١٣٥ .

١١- باب المعرفة :

أدار القاسم الحوار فى مبحث المعرفة حول الجواب عن التساؤل فى الدليل على معرفة الخالق، وأين هو، وكيف هو؟

١-و الدليل على **معرفة الخالق** قد أجبنا عنه من قبل مراراً، وهو النظر فى شواهد صنعه، وما أتقن وأحكم فى مخلوقاته، والنظر فى الآفاق والنفس، ما كبر منها وما دق.

٢-وأما السؤال **عن أين هو؟** فربنا ليس فى مكان؛ لأنه خالق المكان، و هو كان ولا مكان.

٣-و **أما كيف هو؟** فالملحدون فى بعض الأحيان يسألون عن **الذات** أو القدرة أو العلم، والسؤال عن الذات ممتنع؛ لأنه لا يعلم شئ عن ذاته إلا هو.

٤-وأما السؤال عن **صفاته** فظاهرة مشاهدة فى كل شئ[١].

والله عز وجل ليس محاذ لشئ ولا فوق شئ، ولافى شئ، ونفى التجزؤ والتبعيض والتحديد والتناهى والحجم والمكانية، والتجميع والتفريق والحركة والسكون كل ذلك لا يليق بالخالق؛ لأنها من خصائص الأجسام، والله منزه عن كل حدوث، أو مشابهة خلقه[٢].

---

(١) النص ١٣٦ .

(٢) النص ١٣٧ .

١٢- باب الرد على من أنكر قول آل محمد صلوات الله عليهم فى أن الله شئ لا كالأشياء[١] :

وهذا الموضوع أثاره أعداء الإسلام من الفلاسفة **السريان** وغيرهم، وكان هدفهم فى ذلك إحراج المسلمين وإسقاط مقولة التوحيد، فإذا كان الله شيئا ولا يوجد شئ إلا جسماً، فالله جسم كالأجسام.. وهذا كلام باطل سواء فى القياس أو فى الطرح.

وتنبه علماء آل البيت مبكراً لهذه الخديعة وروا عليها، وما بين أيدينا من نصوص قديمة فى الرد عليهم نجدها عند **القاسم بن إبراهيم الرسى** ت ٢٤٦هـ فى الكثير من كتبه "**كالمسترشد**"، و"**الدليل الكبير والصغير**" أما القاسم العيانى، وهو من أحفاده، فقد أوضح القصد من المقولة، وهو أن قولنا "**شئ**" يعنى إثبات موجود ونفى معدوم، و"**لا كالأشياء**" يعنى نفى التشبيه، كما أن النص قد جاء بذلك ﴿**ليس كمثله شئ**﴾[٢] وفى ذلك إثبات ما أثبته لنفسه ونسبه إلى نفسه، ونفى ما نفاه من التشبيه بخلقه[٣].

***

أخذ القاسم بعد ذلك فى الرد على أسئلة الملحدين فى **صفات الله**، فالله تعالى **عالم قادر**، وهى من صات ذاته، **وحى** كذلك، أما الإرادة فهى فعله، والصحيح أن الله يقدر أن يريد أى يفعل. أم أن الله يعلم أن يقدر، أو يقدر أن

---

(١) النص من ١٣٧-١٤٠ .
(٢) سورة الشورى : آية ٢٢ .
(٣) النص ١٣٧ .

يعلم، فمقالة فاسدة محالة؛ لأن القدرة لا تقع إلا على المقدورات، وليست على الله بمقدور فتقع عليه القدرة[1].

واستدل القاسم بالحكمة والإتقان والعلم والقدرة والإرادة على إثبات **أنه حي**، كما واستدل على أنه **قادر** بأن العاجز لا يفعل شيئا أصلاً،واستدل على أنه **عالم** بأنه خلق الأشياء من غير شئ، لعلمه بها قبل أن يبدعها.

وعاد مرة أخرى فنفى أن يكون له تعالى من **الصفات السلبية** ما هو من خصائص الجسمية والمخلوق، كالحد والنهاية والغاية والتجزؤ، كذلك لا يدرك بحس ولا نفس؛ لأن ذلك من خصائص الجسم والعرض، وهما محدثان مدبران مصنوعان[2].

١٣- باب الحقائق :

- ما حقيقة ذاته؟
- هل ذاته حقيقة؟
- وما الدلالة على حقيقته وما يدل عليه خلقه وصنعه فما هو؟
- فقال يحتمل أن يكون السؤال عن اسمه **أو صفته أو ذاته**. "اسمه فهو الله الرحمن الرحيم.. وصفته فهو الواحد القديم القدير العليم.. وذاته فهو الذى ليس كمثله شئ".
- **وإرادة الله فعله**، وهى أمره ونهيه، ولم يزل عالماً بجميع ما سيريد تكوينه.

---

(١) النص ١٣٨ .
(٢) النص ١٣٩ .

- الإنسان يريد بلا علم، وتحدث له النية والضمير والإرادة بإضمار القلب والطوية[1]. "ولو كانت إرادته قبل فعله، لكانت إرادته كإرادة المخلوقين.. وإنما إرادته فعله وفعله مراده.. ومحبة الله رضاه ورضاه محبته، ومحبته ثوابه، وبغضه وغضبه عقابه، وكراهته نهيه لا غير ذلك، وهذه صفات تكون لله فعله، وتكون للمخلوقين بخلاف ما هى لله، أعراض علل فى المعلولات لأن إرادة المخلوقين **اهتشاش** قلوبهم، **ومحبة نفوسهم** قبل فعلهم وكراهتهم ومحبتهم وكراهتهم مختدعان فى صدورهم" [2].
- والله عز وجل خلق بلا **داع أو حافز** فذلك من صفات المخلوقين.
- **والزمن مخلوق** لله عز وجل ولا يجرى عليه.. **والسؤال عن مدة إقامته قبل الخلق فاسد**، فالإقامة هى الحركات والسكون.
- أما لم لم يخلق خلقه قبل أن يخلقهم سؤال فاسد ومحال؛ لأن قبل وبعد يعنى **الزمان**، والله هو الذى خلق الزمان والمكان[3].
- خلق الله **بعلم أو بقصد وإرادة؟**

فقال : إن العلة لازمة بغير إرادة المعلول، والله مجرى العلل فى المعلولات وصانع فى جميع المصنوعات.

- **ما الفرق بين فعل الله وفعل خلقه؟**

---

(١) النص ١٤٠ .
(٢) النص ١٤٠-١٤١ .
(٣) النص ١٤٢ .

فعل الله ابتداع، وفعل العباد حركات وسكون واعتقاد، فعل العباد بآلاتهم، وهى أعراض متعقلة بأجسامهم، وأفعال الله متعقلة بذاتـــه٠ وفعـــل الله إرادتـــه وأمره، وإرادة العبد قبل فعله وهى استطاعته[١].

- كيف خلق الله الخلق؟

الصواب فى هذا هو أن الخلق تهيأ له بالقدرة التى لا كيف لها٠

- أعلم الله كثير أم قليل؟

- علمه الذى هو ذاته لا يوصف بكثرة ولا قلة؛ لأن العدد من خصـــائص الأجسام والأعراض٠٠

* وعلمه الذى أنزله على رسله فهو كثير٠٠ ومعلومه كل شئ كـــان دقيقـــاً أم كبيراً، قليلاً أم كثيراً[٢].

- هل يحصى تقدم الله قبل خلقه؟

محال، لأن تقدمه هو قدمه، وقدمه ذاته وهو لا يهم ولا يدرك ولا يعلم٠

- لم ذكَّر الله اسمه ؟

* لأنه التذكير أولى من التأنيث، والأصل التذكير وجعل التأنيث للمعنى

- هل خلق الله الخلق من شئ أولا من شئ؟

* خلق الله خلقه من غير شئ، والقديم لا يتغير ولا يزيد ولا ينقـص ولا يتجزأ ولا يتبعض ولا يجتمع ولا يتفرق، وهو من خصائص المحدث المصنوع، وهو يحتاج لمن يعفل به ذلك، فيحركه بعد سكون، ويجمعه بعد تفريق٠٠ ولـــو

---

(١) النص ١٤٣ ٠

(٢) النص ١٤٣-١٤٤ ٠

كان المصنوع المخلوق قديماً لكان بعضاً أو كلاً من القديم، وهو باطل مستحيل[1].

وقد أظهر الله الخلق من العدم إلى الوجود إظهاراً لحكمته، وإظهار الحكمة حسن، وفعل الحسن خير من تركه[2].

وكلف الله **عباده لإظهار** الحسن من فعلهم، وفى صبرهم على ما كلفوا حسن يستوجب الثواب، وفى العبادة إظهار للحكمة وإبطال للجهل، والحكمة تدعو إلى الرشاد وتزجر عن الغى وفى ذلك مصلحة جميع العباد.

والصبر على المحن امتحان من الله لعباده، وفى صبرهم مصلحة لهم، وتحقيقاً لموعوده منهم، وهو الثواب وعظيم الجزاء والنجاة من العقاب، والثواب بعد المحنة أكمل وأعظم للنعمة.

وفى ابتداء الله خلقه **بدار المحنة** سر، وهو إظهار فضلهم وجدارتهم بالنجاة من النار والخوف يوم القيامة، وتعظيم سرورهم بتوفيقم لما أمرهم من التكاليف[3].

والمحنة توقظ العبد من الغفلة، وتنبه فيه غريزة النظر إلى عجائب المعرفة، والحكمة بعد النظر فى دلائل القدرة، والنظر خير من الغفلة والمغرفة

---

(١) النص ١٤٥-١٤٦ .
(٢) النص ١٤٦ .
(٣) النص ١٤٦ .

خير من الجهل، والحكمة غاية الطمأنينة فى النفس البشرية، وفى التجارب زيادة فى العقل والخبرة "التجارب لقاح العقل" [1].

والمعجزات هى الدليل على صدق الرسل، ولها صور متعددة كإحياء الموتى، وكلام الشجر والجماد والبهائم .. ومن ذلك عصا موسى، وناقة صالح، وأعظم المعجزات وأكملها وأتمها على الإطلاق هو معجزة محمد ﷺ القرآن الكريم[2].

١٤- باب الرد على من جحد نبوة محمد صلى الله عليه وآله، وعلى جميع الأنبياء وسلم تسليماً :

وهذه مقالة **اليهود والنصارى**، أنكر اليهود نبوة **عيسى ومحمد** عليهما السلام، وأنكر كلاهما نبوة **محمد** ﷺ.. واعتمد كل فى مقالته إلى إثارة قضية أو إشكالية النسخ فى الشرائع، والبداء على الله.

فالمسلمون يؤمنون فيما بينهم ومن جملة عقائدهم الإيمان بالله واليوم الآخر والكتب السماوية المنزلة والرسل أجمعين.

وكما صحت نبوة موسى، صحت نبوة عيسى ومحمد عليهم جميعاً السلام، فقد جاءوا بالمعجزات المختلفة والمتباينة، المقنعة لجميع البشر بثقافاتهم المختلفة، ورتبهم وطبقاتهم.

---

(١) النص ١٤٦-١٤٧ .
(٢) النص ١٤٧ .

وقد شكك الملحدون لجهلهم فى السند والرواة فى نسبة المعجزات لسيدنا محمد ﷺ، وما من نبى مثل نبينا أثبت من هذه الناحية.. والقياس على علمهم بصدق الرواة بما حكوا وأخبروا من صدق موسى وعيسى فى جريان المعجزات على أيديهم.

ومعجزة رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين العظمى الباقية أبد الدهر، هى القرآن الكريم، وقد تحدى الله به العرب والعجم والناس أجمعين فى جميع الأزمنة والأمكنة، وتحدى به النبى ﷺ أهل زمانه أن يأتوا بمثله، فعجزوا وأخرسوا، ومعجزة النبى ﷺ هى الدليل الوحيد الموثق من قبل السماء على صدق معجزة موسى وعيسى عليهما السلام[1].

وإيماننا بدين اليهود والنصارى وأنبياء الله المرسلين، وكل كتاب أنزل وأخبر عنه الله ورسوله فى الكتاب والسنة، يأتى فى إطار أمر الله لنا أن نؤمن بما أنزل وأرسل من كتب ورسل، وهذا الإيمان والتصديق طاعة لله نتوجه إليه بها وحده، ومن ثم كان إنكار الأمم أو الطوائف من اليهود والنصارى وغيرهما بنبوة رسول الله ﷺ، معصية يستحقون بها غضب الله وعقابه[2].

١٥- باب الرد على من جحد الإمامة بعد النبى ﷺ :

يؤمن الزيدية بالنص الخفى على على، كرم الله وجهه، وابنيه الحسن والحسين، رضى الله عنهما، ويؤمن **الشيعة بالنص الجلى** على على وابنيه

---

(١) النص ١٤٧ .
(٢) النص ١٤٧ .

الحسن والحسين، ويعدون بعد ذلك اثنى عشر إماماً وينتهون **بمحمد بن هلال العسكرى** الإمام الذى اختفى بجبل رضوى، ويعتقدون عودته مرة أخرى ليملأ الدنيا عدلاً بعد أن ملئت جوراً[1].

يعتقد القاسم أن جاحد الإمامة مطلقاً **مشرك**، وهو يقصد شرك دون شرك، أى لا يخرج صاحبه من الملة، وإن اعتبر فاسقاً ويعتقد أيضاً أنها **فرض** لا يسع أحد من الأمة إنكاره أو الجهل به، ويرى أن ذلك من خصائص حكمة الحكيم سبحانه وتعالى؛ لإزالة ما بدا ويبدو من الخلاف، وإقامة الحجة على أعدائه، وإقامة الحق والدين ونصرة أوليائه[2].

قال ﷺ : "**من مات لا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية**" وقد أول القاسم قوله تعالى ﴿**إنما أنت منذر ولكل قوم هاد**﴾ الرعد/٧ بأن المنذر هو النبى، والهادى هو الإمام الذى يوضح فى كل زمان للناس ما التبس عليهم فى دينهم، ويرد على غير المسلمين شبهتهم، وهو يؤكد فى هذه المقابلة جمع الإمام للسلطة الدينية والزمنية، فهو إمام دعوة وبلاغ فى نفس الوقت.

والإمام بعد رسول الله هو سيدنا على كرم الله وجهه، والنصوص دالة على ذلك "**أنت منى بمنزلة هارون من موسى**" .. "من كنت مولاه فعلى مولاه.."[3].

---

(١) النص ١٤٨ .
(٢) النص ١٤٩ .
(٣) النص ١٤٩ .

١٦- باب الرد على من زعم أن الإمامة بعد النبى صلى الله عليه وآله، وفى ذريته وفى غيرهم من الأمة.

اعتمد هؤلاء على أن النص موزع بين الزيدية وخصومهم، وكل ما يستدلون به هناك ما يناقضه. وهنا نجد القاسم يلجأ لتحديد الأصول والمرجعية فى هذه المسألة وهى الكتاب والسنة، والعقل كذلك.

وبعد أن حدد القوم الذين ينبغى أن تكون فيم الإمامة من فضل وعلم ورتبة وشرف، حصر ذلك كله فى آل بيت رسول الله، ﷺ، ثم استدل بآيات الله التى جاءت فىَ الفترة المحمدية على أنهم المقصودون بشرف الولاية والحكم، فإذا كان الله عز وجل قد امتدحهم بالطهارة والعفة وقربى النبى وحث الأمة على حفظ رسوله فيهم، فإذاً من باب أولى أن يرثوا الإمامة من بعده وهى وجهة نظر تخص الشيعة عامة، زيدية وغيرهم، جديرة بالاحترام وكذلك النظر"[1].

١٧- باب الرد على الإمامية الرافضة :

يقال عنهم **الإمامية والإثنا عشرية**، لأنهم يؤمنون أن الإمامة فى اثنى عشر إماماً على والحسن والحسين وتمام الإثنى عشر من أبناء الحسين،رضي الله عنهم، دون أبناء عمومتهم من أبناء الحسن.. ثم يعلقون حياتهم السياسية ودولتهم الشيعية إلى حين رجوع الإمام الثانى عشر من غيبته التى غابها من أربعة عشر

---

(١) النص ١٥٠ .

قرناً فى جبل رضوى!! .. وإن كان الخمينى فى عصرنا قد حل هذه المشكلة بنظريته فى ولاية الفقه.

وعلى هذا خالف الشيعة إخوانهم من الزيدية، فحضروا الخلافة فى أبناء الحسين، ولذلك رد عليهم القاسم بأنهم فى الولادة سواء، وكلاهما إمام بعد أبيه، فيكف تفرقون بين ذريتهما!.. والشيعة تدعى إجماعها على أولاد الحسين دون الحسن.. ويناقشهم القاسم فى **دعوى الإجماع** الذى انفردوا به دون سائر الأمة، وخصوا به أنفسهم ببطلانه لأنه على باطل، وكيف يكون إجماعاً وقد خالفهم فيه غيرهم من سائر طوائف الأمة؟! وإن كان القاسم يتصور إجماعاً شيعياً يمثله خاصة أئمة آل البيت، فإجماعهم حجة على غيرهم، وهو يناقش فى ذلك، إلا أنه يقرر أن إجماع الزيدية مع الإمامية فى إمامة أبناء[1] الحسين، لا يمنع من إمامة أبناء الحسن، ويتهمهم بالجهل.

والقاسم يدعوهم إلى سؤال أهل الذكر من آل البيت، وقراءة نصوص الكتاب والسنة بموضوعية، ويدعوهم إلى الإقرار بإمامة أبناء الحسن كأبناء الحسين، حيث أن الجميع آل بيت رسول الله ﷺ الذين طهرهم الله تطهيراً، ودعا إلى مودة الرسول ﷺ فيهم، كما أنه يصف شبهات الروافض بأنها مجرد دعاوى كاذبة وجدل باطل، ولجج فى الحديث، الهدف منه تعميق الخلاف وتفتيت الأمة والمخالفة لله ورسوله[2].

---

(١) النص ١٥١ .
(٢) النص ١٥١-١٥٢ .

١٨- باب الرد على الإمامية فى صفة الإمام :

بلغ الزيدية فى تصورهم لشخصية الإمام من آل البيت الـــذروة، حتـــى فاقوا غيرهم فى هذا الصدد، فهو **إمام كامل** وقدوة من جميع الوجـــوه **العلميـــة والأخلاقية** والعملية، عالم بالكتاب والسنة كأساس، وغيرهما من العلوم الدينيـــة والدنيوية، مقتدياً ومقتفياً لآثار الأئمة المهتدين، مخالفاً للمبتدعة فى الدين، شجاعاً كريماً بذولاً زاهداً، مجاهداً فى سبيل الله، حكيماً عاقلاً.. وهكذا لم يتركوا صفة كمال إلا وحاولوا تقييم الإمام على أساسها، وهذا التدقيق نابع من كونـــه إمامـــاً وعالماً مجتهداً، وهو بهذه الصفات لا يقصر فى الرأى والمشورة وحسن سياســة الرعية[١].

وهذه الصفات بعيدة كل البعد عن التصور الأسطورى الخرافـــى الـــذى يضعه **الشيعة** لإمامهم حيث: :"يطبع بخاتمة الحصى، ويعلم ما وراء الجدار، وما يحدث فى آفاق الأرض والسماء" [٢].. فله صفات الأنبياء والرسل والملائكـــة، معصوم من كل خطأ أو زلل، بل قد يضعونه فوق الرسل، فهو يعرف كل شـــئ ويتلقى عن ربه دون وحى أو واسطة، وقد يصفونه بما يصفون به الله، فهو يعلم الغيب ويراقب الرعية، وهو معها أينما كانت!!.. وهذا التطرف والغلـــو فـــى التصور هو الذى دعا **العبيديون** يؤلهون **الحاكم بأمره** وأبنائه، وسائر طوائـــف الشيعة الرافضة **كالقرامطة** بفرقها المختلفة.. حيث نبذوا التفسير الظاهر القريب للمحكمة من كتاب الله، وكذلك المؤل المقبول على أساس أصول الدين وما جـــاء

---

(١) النص ١٥٢ .

(٢) النص ١٥٢ .

فى الكتاب والسنة وذهبوا إلى التفسير الباطنى الذى يدعيه إمامهم وكبارهم حتى خرجوا عن الدين جملة وتفصيلا

والغريب أن الرافضة لا يرون أى غضاضة أو عيب فى تصورهم لإمامهم المعصوم المتألة، وعند التحقيق لا يسعهم، مع التضيق عليهم فى الحوار، إلا أن يسلموا بأنه يعلم الغيب، وهو باطل يكذبه الواقع والعقل والنقل، ومدعى ذلك كافر بإجماع المسلمين، أو أنه يوحى إليه، وهم يعلمون أن **محمدًا** ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ولا بنى ولا رسول بعده، وقد رفع الوحى وتمت الرسالة واكتمل الكتاب، وثبتت الحجة عقيدةً وتشريعاً وأخلاقاً، وعليهم أن يقبلوا أن يكون إمامهم ساحر كاهن مضطرين، وفى هذا يلحقهم من الشناعة وقبح المقالة مالا يلحق غيرهم، حيث أن ما قبلوه سبة فى جبين أطهر خلق الله من آل بيت رسوله وخيرهم وأشرفهم، حيث ينزهون أنفسهم عند ذلك ولا يجرؤن أن يرموا أو يصفوا أعداءهم به[1]!

***

جاء الكتاب السادس والأخير من كتاب المعجز تحت عنوان (**التوحيد والتناهى والتحديد**[2])، ومن عنوانه يبدو أنه يناقض قضية الوجود والذات والصفات، ويرد على الملحدين فى ذاته أو صفاته. وقد قسمه القاسم إلى جزئين، الأول منهما يشتمل على ستة أبواب[3]، هى على النحو التالى :

---

(١) النص ١٥٣ .
(٢) النص من ١٥٣ .
(٣) النص من ١٥٤-١٨٢ .

١-باب الدلالة على معرفة الله سبحانه والرد على الملحد.

٢-باب الرد على حدث الحيوانات ونهايتها.

٣-باب الرد على الجوهرية.

٤-باب الرد على الفضائية.

٥-باب الوحدانية.

٦-باب الصفات القديمة.

* وهذا القسم يدور كما ترى حول المعرفة، ومناقشة قضية حدوث العالم والجوهر والعرض، والرد على الجوهرية والفضائية، وقد سبق أن رد عليهما من قبل، وكذلك يتناول قضية التوحيد والدلالة على ذلك، وصفات القديم الذاتية كالعلم والقدرة.

* أما الجزء الثانى من كتاب التناهى والتحديد، فقد تناول مسائل المحال[1]، وهو مبحث يدور حول الصفات السلبية أو ما لا ينبغى ولا يليق بالله ذاتاً وصفاتاً.

١- باب الدلالة على معرفة الله، سبحانه، والرد على الملحدين الكفرة الجاحدين:

عاش الفلاسفة إشكالية كيف نعبد من لا يرى ولا يدرك بحاسة من الحواس، **ما الدليل والدواعى التى تدل وتدعو إلى هذا الإله؟**

والقاسم يرى أن الدليل هو ذلك الذى دلنا الله، عز وجل، به عليه، والداعى الذى دعانا إليه، هو أنا رأينا آثار وشواهد صنعه فى خلقه للعالم والأكوان والإنسان والحيوان والنبات والجماد وما فيها من آثار حكمته وإتقانه.

---

(١) النص ١٨٣-١٩٥ .

والدليل على علم الله الصانع وحكمته، شواهد صنعه بإتقان وعلم وحكمة، وبالفطرة يمكن إدراك ذلك، وهو لا يمكن إحصاؤه.

وفى خلقه تعالى للإنسان والحيوان، من ذكر أو أنثى، من نطفة إذا تمنى، آية من آيات الإحكام والإتقان، ثم ما وضعه فينا من حواس عديدة ندرك بها، فنحس ونشم ونرى ونسمع ونتذوق، وغير ذلك من أعضاء الحركة والتنفس، وما جبلنا عليه من الحركة وحسن التدبير فى التصرف.. كل ذلك من آيات النظر فى النفس من حياة وموت، دالة بوضوح على الله الواحد الحى الحكيم العالم[1].

والنظر دعا إليه الله **عقلاً ونقلاً**، وفى إمكان النظر فى الجهاز العصبى والهضمى، ونظام الغذاء والإخراج فى الإنسان، وحركة النمو والتربية فى الإنسان من سن الطفولة والصبى حتى الشباب والنضج، ثم الشيخوخة والهرم.. كل ذلك من أحكم التدبير والتقدير، الذى لا يقوم به إلا حى عالم مقدر حكيم. ومحال عند العاقلين **أن تكون الطل الميتة عالمة حية مدبرة متقنة للصنع مقدرة**[2].

٢- باب الرد على حدث الحيوانات ونهايتها :

هذا القاسم هذا الباب فى الرد على **منكرى الألوهية من الدهرية**، الذين يعتقدون أن المادة قديمة ولا تفنى ولا تعدم، وإنما هى دورة الحياة التى لا تنتهى فمازال الإنسان والحيوان يحدثان من نطفة، والنطفة من إنسان و حيوان،

---

(١) النص ١٥٦ .
(٢) النص ١٥٧ .

والطائر من بيض والبيضة من الطائر، وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية ولا يوجد ثم خالق.

وهذا القول مردود بالمشاهد من آثار صنع الحكيم العالم، فهو محدث مبتدع ومنشأ مصطنع، وما صح إحكامه وتدبيره وإنشاؤه وتقديره، فهو محدث مجعول، ومبتدأ معقول، وما صح حدثه واجتعاله، ونشأته وافتعاله، فقد صح تناهيه واعتماله[1].

ويستحيل أن تكون هذه الحيوانات منذ القدم على ما هى عليه، إذ إن كل صنعة لابد لها من صانع حكيم ومدبر عليم.. والمعقول أنها كانت ميتة جامدة وساكنة لابثة هامدة، وفى هذا دليل على الصانع الذى أماتها ثم امتن عليها بالحياة وإظهار الصنعة والإحكام فيها، بحسن خلقها وما بثه فيها من أدوات وحواس وقدر، وأنعم عليها بكفايتها، ويعلم ما تحتاج إليه مما خلق فيها أو تفضل عليها به من غذاء ورعاية[2].

٣- باب الرد على الجوهرية :

يقول القاسم : "زعم صنف من الملحدين، وهم أصحاب الجوهر أن الهيولا، وهو أصل الحيوانات، جوهر قابل للأعراض وأن معه قوة قديمة وهو قديم، فحرك القوة فحدث البرد فقبله، ثم حدثت القوة فحدث الحر فقبله، ثم قبل اليبس والرطوبة"[3].

---

(١) النص ١٥٨ .
(٢) النص ١٥٨ —١٥٩ .
(٣) النص ١٥٩ .

وقد سبق مثل هذا المبحث من قبل، وتمثل الفكر الهلينى القديم الذى يرى أن الخلق أو الإبداع مكون من مادة وصورة، وتبقى المادة لا قيمة لها حتى تدلخلها الصورة والتى تحمل سر الروح فيه.. فالمادة ميتة حتى تصور وتخلق وهى فكرة أفلاطون.

فمن إذن الذى أحيا الموات وحول الطين إلى صورة حية وبث فيها هذه القوة الهيولية؟!.. وإذا كانت المادة المصورة الحية عاجزة عن الخلق والتدبير والفعل، فكيف تقدر المادة الميتة على ذلك[1]؟!

ويبدو أن فكرة الجوهر الذى يتدخل فيبث الحياة فى الطين المادة الميتة، يسهل نقدها من وجوه، منها أنها إما أن تكون حية حكيمة مدبرة، وفى هذه الحالة تكون مصنوعة محدثة، لما يشاهد فيها من آثار صنعة البارئ المبدع، وإما أن تكون ميته فكيف يكون الموات خالقا أو علة فى إحياء الموات وهو عاجز[2]!

ويمكن نقد أصحاب الطبائع بمثل ما نقدنا به فكرة الجوهر، وكذلك فكرة العلة الخالقة، وليس الخالق بعلة ولا معلول، وهو خالق كل شئ مبدع له، خلق الخلق ليستدل به عليه وليقيم الحجة على عباده[3].

---

(١) النص ١٦٠ .
(٢) النص ١٦١ .
(٣) النص ١٦١-١٦٢ .

٤- باب الرد على الفضائية والدليل على حدث الفضاء ونهايته(١).

اعتقد الفلاسفة الدهريون القدماء بقدم الهواء.. ولذلك فى مجادلتهم للإسلاميين أعوزهم معرفة الدليل على قدم الهواء، المكان الذى فيه الأشياء، أى المخلوقات طراً[٢].

وذهب القاسم إلى أن سكونه وحركته وقلته وكثرته، من حيث الكم، أكبر دليل على حدوثه وأن له محدث صانع خالق.. ومع ذلك جادل الملحدون فى كون إقامة الهواء وسكونه وحركته مما يكون دليلاً على حدوثه.. ولكن القاسم أبان لهم أن ذلك أمراً عقلياً يدركه العقلاء، فهو إما أن يكون له مقيم أقامه أو أقام هو نفسه، ولا شك فى أن له مقيم أقامه من العدم، كما يستحيل أن يكون قد أقام إقامة لا تحصى، أى مفتوحة البدايات والنهايات، لأن الزمان والمكان مخلوقان لله يعرف بهما المسافة والوقت[٣].

وفى نفى الأزل نفى القدم عن الهواء والمكان.. وإذا صح فى العقول أن الإقامة كان لها بدء وأول، فهو من اليقين بأن للهواء والمكان محدث خالق أقامه، ويترتب على ذلك تناهيه وتحديده وأن الله مخترعه ومدبره[٤].

---

(١)النص من ١٦٢-١٧١ .
(٢) النص ١٦٢ .
(٣) النص ١٦٣ .
(٤) النص ١٦٣-١٦٤ .

كذلك تساءل الملحد عن الفضاء **هل له حدود يتناهى** إليها وأماكن يعتمد عليها؟.. وهو لاشك فى أن له حدود يتناهى إليها أما المكان فقد يكون الجهات الست أو هو نفسه، وكلاهما صحيح حيث تكون "أطرافه تحوى وسطه.. وأعلاه جهة لما دونه"[1].وله أعالى وأسافل وحدود وجهات وهى مغايرة فى أنفسها وليس للحدود وراء ولا شئ يتوهم ولا يرى.. "إنما المتوهم المعقول هو المحدث المصور المجعول"[2].

وكل مخلوق من الأجسام له محل قد خصصه الله به، ولا يمكن أن يخرج عن مكانه ومحله، لما دبره الله وأحكمه من وظيفة يقوم بها فى كونه.

والله تعالى لا يفعل إلا لحكمة، ويتعالى عن أغاليط الملحدين، وكل محدث له حد ونهاية كما كان له بداية، والمحال خلق من خلقه تقف عند حدود ما خلقت له.. فللهواء والفضاء والأماكن نهايات محددة، وليس وراء الحدود شئ متوهم[3].

•••

سأل الملحد عن مسألة من المحالات لجهله، فقال: **هل كان الله يقدر أن يخلق الهواء** الذى هو محل الأشياء قبل أن يخلقه؟

---

(١) النص ١٦٤ .
(٢) النص ١٦٥ .
(٣) النص ١٦٦ .

والمعلوم أن القدرة تقع على المقدورات لا المحالات، فالوقت والهواء خلقا معا، فكان الوقت إقامة الهواء، فكيف يكون قبله أى الهواء، ومحال أن تكون الصفة قبل الموصوف بحال. "وإذا صح حدث الهواء بدلائل الحركة والسكون، الذين هما الأوقات، وهما حقيقة الأزمنة والساعات، فقد صح حدث العلل والمعلولات"[1]. كما أن الحدث دليل على التناهى والتحديد .. وتناهى الأعراض هو الأوقات تناهى حدوث ساعات وبطلان ساعات"[2]. فهل تهلك الأزمنة والأوقات كما يهلك كل شئ وأخبر الله بذلك أم أنها لا تهلك؟

أبان القاسم عن غور فهم وأصالة كبيرة، عندما بين أن ذلك يجرى مجرى أن الله تعالى يقصد هلاك كل حيوان، أما الزمن والوقت فلا، وقد قال عن بلقيس أنها أوتيت من كل شئ ولم تؤت ملك سليمان مثلاً.. فهو على سبيل المجاز لا أكثر[3].

واختلف العلماء عن أول مخلوق، واختار القاسم ومجموعة من المتكلمين أن يكون الهواء وهو أول مخلوق، ورد على المخالفين ومنهم الملاحدة.. كما ورد على من ذهب أن من الحكمة خلق العقلاء قبل خلق غيرهم، لما فى ذلك من المنافع والمصالح ما لا يخفى بأن لله الحكمة الحجة البالغة، ولا يعنى خلقه للهواء والفضاء والعوالم العلوية والسفلية قبل خلقه للعقلاء، كما يدعون انتقاصاً للحكمة.. وللحكمة أسرار خفية لا يطلع عليها من عباده إلا المتقين، والمعرفة

---

(١) النص ١٦٧-١٦٨ .
(٢) النص ١٦٩ .
(٣) النص ١٦٩ .

بالله أكبر من قياسات عقول البشر، وفى خلقنا وتصويرنا وتدبيرنا أول دليل على الحكمة "ورحم الله عبدا نظر لنفسه واجتهد فى طلب الدليل على ربه، وأجد فى عمارة قلبه"(١).

٥- باب الوحدانية :

-ما الدليل على أن الله سبحانه وتعالى واحد؟

اعتمد القاسم فى إجابته على أن الاثنين يحدث بينهما تضاد وتنافى، وقد سبق الحديث عنه٠ ولا يمكن أن يتفقا لأن اتفاقهما إما أن يكون عن اضطرار وخوف وهو من خصائص المخلوق العاجز، فلا يكونا إلهين٠٠ وإما أن يكونا قد اتفقا قبل الاختلاف، فلا يوجد داعى للاتفاق ولا شئ يتفقا فلا يكونا إلهين كذلك(٢).

-ما الدليل على أن الله قديم ؟

كل محدث فيه صفة تَدل على من أحدثه، وكل بناء يدل على من بناه، وليس لله صفة تدل على حدثه، ولا له ذات مركبة يدل ذلك التركيب على مركبه٠٠ وإذا كان الله سبحانه لا يوصف بصفات تدل على الحدث، فقد ثبت له القدم، وانتفى عنه الوجود بعد العدم(٣).

---

(١) النص ١٧٠-١٧١ ٠
(٢) النص ١٧٢ ٠
(٣) النص ١٧٣ ٠

- ما الدليل الذى يدل على قدم الله عز وجل؟

أن المحدثات تحتاج إلى محدث أحدثها، والمحدث لا يكون مثل المحدثات، لأنه لو كان مثلها وشابهها لتعذر عليه خلق الأجسام كما تعذر عليها[1].

٦- باب الصفات القديمة التى هى لله عز وجل :

ما الدليل على أن الله عالم؟

ما صنعه بحكمة وإتقان وإحكام لا يفعله جاهل أو عاجز، والعقل شاهد على أن خالق هذا الكون بما فيه من عجائب الصنع والتصرف والتقدير، لابد أن يكون عالما قاصدا لما فعل.

تأليفه بين المتضادات والمختلفات من المواد تدل على علمه، وهو إما أن يكون عالما بما فعل أو غير عالم.. والشاهد يدل على أنه عالم، إذ الجاهل مماثل لما فعل من المفعولات، فكيف يبدع جاهل ما لا يعرف؟!

كما أنه ليس بغافل قد صنع بخاطر؛ لأن الخاطر عرض والعرض لا يحل إلا فى الأجسام، مما يشير إلى الحدوث وعدم القدم، وهو محال على الله[2].

-ما الدليل على أنه قادر؟

هو وجود ما قدر على إيجاده، وإحداث ما صنع من مراده، والدليل على قدم القدرة كالدليل على قدم العلم.. فلو خلا عن العلم فى القدم كان جاهلا،

---

(١) النص ١٧٤ .

(٢) النص ١٧٤ .

وكذلك لو خلا عن القدرة كان عاجزًا، وتعالى الله عن صفات النقصان والسلوب.

والقول بحدوث القدرة يفضى إلى التسلسل والدور وهو محال. كما لا يعقل أن غيره قد أحدثها فيه، وإلا كان الآخر هو الخالق المحدث والرب الجدير بالعبادة[1].

وترتب على كونه، تعالى، عالماً حكيماً قديراً، أنه حى سميع بصير، وإذا كان الميت لا يكون حكيماً، فكذلك الأصم الأعمى لا يكون عليماً.

وصفاته، تعالى، هى ذاته فعلمه قدرته، وقدرته علمه، وكذلك باقى الصفات، وقدمه هو ذاته وذاته قدمه. "ألا ترى أن السمع هو العلم بالأصوات، وكذلك البصر هو العلم بالمبصرات، لا أنه كما قال أهل التشبيه ذو آلات!"

ويعلل القاسم سبب الوقوع فى الإلحاد بقوله : "وإنما يولد الشرك والتشبيه والتجوير ونفى العدل والتوحيد، من قبل الجهل بحدث العالم، ولو علموا بحدث، المحدثات لما شبهوا، ولو أيقنوا حقيقة اليقين، لما ألحدوا فى الله ولا كفروا.."[2].

-فلم يعذب الله الجهال على ما لم يعلموا ولم يضطروا إليه فيعرفوا؟

يعذبهم على ترك طلب الدليل عليه، والتواصل بالفكر فى صنعه إليه، والخوف منه والطمع فيما لديه.. إلخ

---

(١) النص ١٧٥ .

(٢) النص ١٧٨ .

انتهى القاسم إلى أن الجهال الضلال من أمة محمد ﷺ لم يسعوا إلى طلب الدليل أو العلم من آل بيت نبيهم، ولا اقتدوا بهم، وعبدوا الله ظناً وألحدوا فى ذاته وأسمائه، رغم أن النظر والسؤال لأهل العلم الراسخينَ فيه قد تيسر لهم فتركوه[1].

ويعدد القاسم مآثر آل البيت وفضلهم، بعد بيان فضل أصل الشجرة المباركة وقبسها النورانى الربانى، سيدنا محمد، ﷺ، ويذكر أعمدة المذهب الزيدى كالإمام **زيد** بن **على الشهيد**.

والإمام **يحيى بن إبراهيم** المعروف بالفخى **ومحمد بن عبد الله بن إبراهيم، والحسين بن على الشهيد، ويحيى بن عبد الله بن الحسين، ومحمد بن إبراهيم بن إسماعيل، والإمام القاسم بن إبراهيم الرسى، والهادى إلى الحق يحيى بن الحسين وابنه محمد بن يحيى**[2].

وكل هؤلاء لهم من الفضل والعلم والإمامة أعظم الدرجات، وقد تصدوا للطغاة والمستبدين فى عصرهم، من أجل الأمة والشعوب المغلوبة، وابتغاء مرضاة الله، وعودة الخلافة الراشدة والحقوق لأصحابها، وسيادة العدل وشريعة السماء وإقرار الشورى.. فخرجوا وأرسوا **مبدأ الخروج**[3] .. وظل اللاحق

---

(١) النص ١٧٨-١٧٩ .
(٢) النص ١٨٠-١٨١ .
(٣) النص ١٨٢ .

منهم يقتدى بالسابق، حتى صاروا أنوار الظلام وقدوة الأنام، وبحق أبناء الكامل المكمل الطاهر خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد،ﷺ.

وخصص القاسم الجزء الثانى من كتابه السادس والأخير **"التناهى والتحديد"** فى ذكر بعض المسائل المحالة على الله والفاسدة".

ومن ذلك ما يلى :

- هل لو أراد الله أن يفنى نفسه أيجوز ذلك أم لا؟
- هل لو أراد الله أن يدرك بعض خلقه أيجوز أم لا؟[١].
- هل يقدر الله أن يخلق مثله؟
- هل يقدر الله أن يخلق خلقاً لا جسماً ولا عرضاً؟[٢].
- هل يقدر الله أن يخلق خلقاً لا نهاية له؟[٣].
- هل يقدر الله أن يعلم؟
- هل يريد الله أن يقدر؟[٤].
- هل يريد الله أن يعلم؟
- هل يعلم الله أنه يقدر؟
- هل يقدر أن يريد ؟[٥].
- هل يعلم أن يعلم ؟

---

(١) النص ١٨٣ .
(٢) النص ١٨٤ .
(٣) النص ١٨٥ .
(٤)النص ١٨٦ .
(٥) النص ١٨٧ .

obeikandl.com

- هل يقدر أن يقدر؟
- هل يريد أن يريد؟[1].
- أيعرف نفسه أم ينكرها؟
- أخبرنى عن معرفته لنفسه أهى هو أم هى غيره؟
- أخلق الله الأشياء من شئ أم من غير شئ؟[2].
- أيقدر الله أن يظلم عبيده ويخلف وعده ووعيده؟
- فما ينكر أن يحبث الله، تعالى عن قول الملحدين؟[3].
- هل يحب الله نفسه أو يبغضها؟
- أيكرم الله نفسه أم يهينها؟
- هل يقدر الله أن يعلم بعض خلقه جميع معلوماته؟
- لم زعمتم أن هذه المسائل تستحيل ولا يجوز أنه يوصف بها الواحد الجليل؟[4].

ويكفى فى الرد على الملحدين فى هذه التساؤلات محالة، أنها متهافتة ومتناقضة يغلب عليها الخلف والجدل المغالطى، ومالا يليق أن يكون كلاماً فى الأصل لعقلاء فاهمين، وبهذه التساؤلات والرد عليها، ينهى القاسم كتابه الجليل ليسدى للفكر الإسلامى عموماً والعقيدة خدمة جليلة وعميقة، تشهد بقدرة الأجداد على الحوار والنظر، والمجادلة بالتى هى أحسن إلى أبعد مدى، واعتبار

---

(١) النص ١٨٨ .
(٢) النص ١٩٠ .
(٣)النص ١٩١ .
(٤) النص ١٩٣ —١٩٥ .

التواصل الفكرى وأخذ الآخر، من حيث الفكر والعقيدة والمنهج، بجدية واهتمام هو من أولويات المسلم، الذى جعله موضوعاً للدرس، فالتهم ما عنده وغلبه فى أخص خصوصياته، أما اليوم فقد جعلنا الآخر موضوعاً لدرسه بعد أن كنا المصدر الوحيد لمعرفته بالأمس القريب!! أسأل الله أن أكون قد وفقت فى تحليل النص بما يقرب أفكاره للدارسين وغيرهم، ويوضح ما كان فيه غامضا، إنه على ما يشاء قدير.

obeikandl.com

ترجمة القاسم العيانى

(٣٨٤-٤٠٤هـ = ٩٩٤-١٠١٣م)

الحسين بن القاسم بن على العيانى المهدى لدين الله، من أبرز أئمة الزيدية باليمن، قام بالإمامة بعد أبيه .. وكانت إقامته بصنعاء. وقاتله بعض معارضيه، فقتل بالبون (شمالى صنعاء) وكان فصيحاً مناظراً، له كتب منها :

١-التحدى للعلماء والجهال.

٢-تفسير غريب القرآن فى.

٣-كتاب الأسرار.

٤-كتاب الصفات.

٥-كتاب المعجز (فى الكلام والمنطق) [١].

وقد أخذ صاحب معجم المؤلفين هذه الترجمة بتمامها من كتاب الأعلام للزركلى[٢]. ولم يزد سوى الكتاب الخامس فى قائمة المؤلفات[٣]، وسنذكر فى آخر الترجمة قائمة بالمراجع التى رجعا إليها، بالإضافة لما رجعنا إليه كذلك فى ترجمته.

وذكر ابن الوزير فى هداية الراغبين عن القاسم ما يلى :

---

(١) وهو الذى نقوم بدراسته وتحقيقه.

(٢) انظر الزركلى : الأعلام، ٢/٢٥٢ .

(٣) انظر كحالة : معجم المؤلفين، ١/٦٣١ .

هو الإمام المهدى لدين الله، الحسين بن القاسم بن على بن عبد الله بن محمد بن القاسم بن إبراهيم عليهم السلام قام بالإمامة بعد أبيه.

كان من عيون العترة فى زمانه، وتيجانهم المكللة فى أوانه، مشهور بالعلم والعبادة، معروف بالفضل والزهادة، وله عليه السلام التصانيف الرائعة فى علم الكلام والكتب الفائقة على مخالفى العترة عليهم السلام، وهى كثيرة، قيل إنها تبلغ ثلاثة وسبعين تصنيفاً منها :

- المعجز فى علم الكلام.
- والرد على الصابئة.

وغيرهما من كتبه فى العلوم الكلامية.. ومنها تفسير كامل سلك فيه الطريقة الوسطى.. وله فى اللغة العربية اليد البيضاء.

اعتقد فيه بعض أتباعه الرجعة، وهناك فرقة من الزيدية تسمى الحسينية، تعتقد فيه ذلك منهم أمراء وعلماء، وقد طالت مدتهم على ذلك وأدرك الفقيه العلامة يحيى بن محمد العمرانى من يعتقد ذلك بالحمية.

ولابن الوزير رسالة فى نهى هؤلاء عن اعتقادهم الفاسد، الذى لا يرتضيه الإمام نفسه لو كان حيًا، وقد أنكر مثله على الشيعة الروافض بل وكفر من يعتقد ذلك تسمى (**الرادعة لذوى النهى عن الغلو فى أئمة الهدى**) أنكر عليهم فيها الغلو والخوض فى الباطل ونسبته لأئمة الهدى[1].

---

(١) انظر ابن الوزير : هداية الراغبين، مخطوط لوحة ١١٧ظ ،١١٨و .

وبعد فمن يصدق أن هذا الكتاب القيم البالغ غاية النضج كان لشاب قتل فى ريعان الصبا ولم يبلغ العشرين من عمره!!

فماذا كان هؤلاء السلف، ما القوة التى كانوا يستقون منها كل هذه القدرات الهائلة العظيمة؟!! إنه الإيمان، والإيمان وحده، واليقين بالله الذى لا يخلف وعده، وصدق ربنا إذ يقول ﴿**للذين أحسنوا الحسنى وزيادة**﴾ سورة يونس الأية ٢٦ ٠

بعض المراجع التى ذكرت ترجمة المؤلف هى على النحو التالى :

١-بلوغ المرام، ص ٣٥و ٤١٠ ٠

٢-هدية العارفين ٣٠٧/١ ٠

٣-البعثة المصرية، ص١٨ ٠

٤-الأعلام ،٢٥٢/٢ ٠

٥-معجم المؤلفين ،٦٣١/١ ٠

٦-هداية الراغبين (مخطوط) لوحة ١١٧ظ ،١١٨ ٠

فى وصف المخطوطتين :

١- النسخة الأولى (أ) :

رمزنا لهذه النسخة بالرمز (أ) وجعلناها أصلاً عند المقابلة، وهى نسخة كاملة كتبت سنة ١٠٦٧هـ وخطها نسخ واضح، وهى إحدى مخطوطات المكتبة المتوكلية اليمنية بالجامع الكبير الصنعاء، وتأتى تحت رقم ٣أ علم كلام، وقد صورت برقم ٢٦١ ٠٠ وعدد أوراقها ١١٦، وقياس الصفحة ٢١×١٤ ٠

وقد علق على أول التصوير- واعتقد أنه الأستاذ فؤاد سيد- بأنها تبدو ناقصة فى أولها قليلا لعدم مجئ ديباجة فى أولها رغم أن لكل من الكتب التى تضمنها ديباجة خاصة".

وهو غير صحيح لأسباب منها أن النسخة (ب) قد بدأت بمثل ما بدأت به النسخة (أ)، كما أن هذا الكتاب عبارة عن عدة كتب فى نقد المذاهب المخالفة للإسلام، فى قضايا الإلهية والتوحيد من الفلاسفة القدماء، والدهريين والثنوية والمجوس وغيرها.. ثم جمع المؤلف هذه الكتب المختلفة والتى أظن أنها كتبت على فترات متفاوتة ، وقد جمعت تحت عنوان واحد وهو المعجز.

إذن فلا نقص فى ديباجة الكتاب ولا غيره.. وقد وجدنا بعض الكلمات القليلة التى يختلف فى قراءتها ولا تؤثر فى المعنى أشرنا إليها فى مواضعها، كقوله أثبتناها وأبناها..أو بياض فى موضع أو اثنين على الأكثر.

وهى نسخة فى صدرها تملكات متعددة، فقد تناقلها أئمة آل البيت من العترة الطاهرة، حتى وصلت إلى المكتبة المتوكلية بأمر الإمام المتوكل فى القرن السابق، وأتى فى صفحاتها مقابلات وتصحيحات عديدة على الأصول المكتوبة عنها، وهو ما يدل على أن الكتاب له نسخ كثيرة، كانت موجودة قبل القرن الحادى عشر الهجرى، جمعها الإمام محمد بن الحسن بن القاسم أو يحيى ت١٠٧٩هـ، وأمر النساخ بكتابة أكثر من نسخة منه.. فجاءت واضحة مفصلة، كما سنرى، ويوجد مصورة من هذه النسخة بدار الكتب المصرية تحت رقم ميكروفيلم ٢٧٢ .

٢- النسخة (ب) من كتاب المعجز:

هذه النسخة كسابقتها من نفائس المكتبة المتوكلية، كتبَت بخط نسخ واضح جلى، وعدد لوحاتها ٩٩ لوحة جاءت مصورتها تحت رقم ٢٩٢ يمن شمالى، بمعهد المخطوطات العربية، وقد كتبت سنة ١٠٧٤ هـ أى بعد النسخة الأولى، بعناية الإمام محمد بن الحسين بن القاسم بن محمد٠٠ وبين النسختين ما يقرب من سبع سنوات٠

وقد جعلنا النسخة (أ) أصلا قابلنا عليه، ولا يوجد فروق بين النسختين فى الجوهر ولا ترتيب الكتب والقضايا، سوى فى تقسيم الكتاب الأخير، فجاء عددها فى النسخة (ب) ستة كتب، وفى النسخة (أ) خمسة فحسب٠

وجاء فى هذه النسخة (ب) نقص فى الصفحات ١٦٥-١٦٦ أتممناها من النسخة (أ)، ولعله غفلة من الناسخ تداركناها٠٠ وهى نسخة مقابلة على النسخة (أ)، وجاء عليها تملكات عديدة حتى وصلت إلى المكتبة المتوكلية٠

وجاء فى صدر النسخة (ب) :

مكتبة الجامع الكبير الغربية بصنعاء ٤ أصول الدين ك ٤٧٨ ٠٠ المعجز٠ تأليف : الإمام المهدى لدين الله الحسين بن القاسم بن على العيانى المتوفى ١٠٤٠هـ٠

-أوله بعد البسملة : باب الرد على من جحد الله، وقال بقدم الهواء وغيره من الأشياء٠ قال المهدى٠٠٠

-وآخره.. والفعل هو الثالث المجعول المتوسط بين القابل والمقبول، تم كتاب التناهى والتحديد من كلام الإمام المهدى.. وهو آخر كتاب المعجز، وحسبى الله..

وترتيب الكتب وعناوينها على النحو التالى :

١- الكتاب الأول وفيه بابان :

أ- باب الرد على من جحد الله.

ب-باب الدلالة على حدث الأجسام.

٢-الكتاب الثانى :

باب الرد على عبدة النجوم وغيرهم من فرق الملحدين.

٣-الكتاب الثالث : كتاب الطبائع.

٤-الكتاب الرابع : كتاب شواهد الصنع والأدلة على وحدانية الله وربوبيته.

وجاءت فيه خمسة أبواب ذكرناها بالتفصيل فى تحليل الكتاب لاحقا.

٥- الكتاب الخامس : كتاب الرد على الملحدين وغيرهم من فرق الضالين.

وقسمه المؤلف إلى ثمانية عشر بابا فى التحليل.

٦-الكتاب السادس : كتاب التوحيد والتناهى والتحديد.

قسم المؤلف إلى جزئين الأول منها فى ستة أبواب، والثانى تحت عنوان مسائل المحال.

منهج الدراسة والتحقيق

قامت الدراسة على وضع مقدمة للكتاب، مع تحليـــل لكتبـــه وأبوابـــه، ووضع ترجمة لمؤلفه ووصف مخطوطتيه.

أما التحقيق فقد قام على الأسس التالية :

١-التحقق من نسبة المخطوط لصاحبه من مصادر ومراجع عدة.

٢-تصوير المخطوطتين ونسخهما بدقة متناهية.

٣-ضبط الأقسام والكتب والأبواب والتمييز بين السائل والمؤلف، ببيان الفـــرق بين السؤال وجوابه.

٤-وضع علامات الإملاء والترقيم فى موضعها.

٥-تشكيل ما يمكن أن يشتبه على القارئ من كلمات.

٦-تخريج الآيات والأحاديث وكثير من مقالات الفرق المختلفة إن أمكن.

٧-وضع التعاريف المختلفة للمذاهب، أو الإشارة إليها فى الموسوعة الفلسفية أو سواها من الكتب المتخصصة.

٨-وضع الفهارس المختلفة لتيسير العمل على الدارسين والقراء.

هذا والله أسأل أن ينفع به

ويضعه موضع القبول لدى الجميع

د.إمام عبد الله

نماذج من المخطوطتين

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

باب الرد على من يحدث الله

وقال بقدم الهوا وغيره من الاشيا له قال المهدي لدين
الله الحسين بن القسم صلوات الله عليه فان سال بعض
الملحدين لهل الحيرة المتمردين فقال ما الدليل على حدث
الهوى قيل له ولا قوة الا بالله الدليل على حدثه انه لم
يخل من الزمان طرفة عين وحدثنا الزمان ومحدثه وهو حدثه
سكون الهوى فعلمنا ان ما لم ينفك من المحدث ولم يوجد الا به
ان سبيله في الحدث كسبيله فان قيل وما الدليل
على حدث الزمان قيل له ولا قوة الا بالله الدليل
على حدثه ان كل ساعة لها اول واخر وكل ليلة وكل يوم
وشهر فكلما حدثت ساعة انقطعت وهذا دليل على حدث ما
من الزمان فقد انقطع وفني وما وقع عليه الانقطاع والفناء
فقد بناها بين البيان واوضح البرهان فان قال وما ان
من الزمان ان يكون الزمان الذي هو سكون الهوى قديما لم يزل
ما نزل ساعة بعد ساعة وساعة قبل ساعة الى ما لا نهاية له
قيل له ولا قوة الا بالله انكرنا ذلك لان قولك هذا

لحلو من احد وجهين اما ان تكون غنيت بدا الزمان الذي
انقطع ومضى وتصرم وفنى واما ان تكون غنيت غير فان
كنت غنيت غير فليس كل امنا الافنية وان كنت غنيت فكيف
لا تنا هى غنيه وعقل من اهل التهى شي قد وقع عليه الانقطاع
والفنا وما انقطع وفنى قد بيناها ودليل اخر اما ان
تكون غنيت بقولك كل ما فنى ومضى من الزمان الذي هو نكون
الهوى واما ان تكون غنيت بما بقي منه الان فان كنت تريد ما
مضى منه وغبر فقد لحبت نفسك من حيث لم تشعر وان كنت
غنيت ما بقي من الدهور وما هو يمر على الخلق ويدوم من
الساعات والايام والليالي والشهور فها هو اليوم لمضي ساعة
لحادثة وبحدوث غيرها فكلها حدثت ساعة فثبت ساعة
وتناهت فهذا دليل على ما مضى من سكون الهوى ولا يزال ذلك
ابدا بابقاء الله تبارك وتعالى وسنزيد ان شاء الله بيانا ونوضح
ونوضح لك من ذلك هديا وبرهانا ونسال الله ان يوفقنا فنقول
ان شاء الله ما تقول ايها السايل عن حدث الهوا هو في ذلك عندك
كائن امرا فان قال ليس بكائن كابر عقله واستغنى عن مناكرته
لجهله بان الهوا لا بث غير زايل لا يمتنع من لبث عاقل ولا يكابر

والاكرام مسئلة وذلك ان سأل فقال
هل يقدر الله ان يعلم بعض مخلوقاته جميع معلوماته فان قلت
يقدر فقد صار عندي في العلم مثله وان قلت لا يقدر عجزتموه
قيل له ولا قوة الا بالله هذه مسئلة متناقضة لانك قلت
هل يقدر ان يعلم بعض مخلوقاته جميع ما يعلمه فجعل المعلوم
جميعا والجميع يتناهى ومعلوم الله لا يتناهى والجد ولا
يحصى ابدا او لا يعد فاترك من لسانك انك ان عجزك لما في
مسألتك من تناقض قولك الا ترى ان الله من معلوم نفسه
وليس الجميع فيكون له جميعا وليس بمعدود فيكون معدودا
فكيف يريد ان يعلم خلقا نفسه ونفسه لا تعلم ولا تدرك لغير
الاول وانهم لانها نفس ليست من الكل ولا الابعاض ولا من
الاجسام ولا الاعراض وسؤالك فانما هو عن كل المعلومات
وانك فالا يصح الا من المصنوعات مسئلة
فان سأل فقال اخبروني لم زعمتم ان هذه المسايل تستحيل
والجواز يوصفها الواجد الجليل قيل له ولا قوة الا بالله
انما استحالت هذه المسايل لتناقضها وتكاذبها في المقال وتدابرها
لانك ايها السايل تسأل عن الله الجليل ثم تنقض بالقول المستحيل

فلو تجلى لشيء من ذلك لعظم الأمر وانهدم الأمر والله يتعالى عن سمة المخلوقين والوجه الثاني أن يعني الله
الكافرين وهو العذاب ونحن نعلم أن الله يتعالى عن ذلك لأن ذلك يستحيل
فيما يجوز على الله تعالى وأما قوله تعالى ﴿ويبقى وجه ربك﴾ فإن الله تعالى
أخبر أنه باق لا يفنى ولا يجوز عليه الفناء ولا يستحيل عليه البقاء
وكذلك إذا سأل فقال أليس قد فسر الله تعالى ما أمر به نبيه فقال له ﴿وقاتلوا
الذين لا يؤمنون بالله﴾ الآية فكذلك يجب أن يفسر ما أمر به نبيه فقال له
﴿ويبقى وجه ربك﴾ فإن الجواب عن ذلك أن الله تعالى أمر نبيه بقتال الكفار
لأنه علم أنهم يموتون على الكفر ولا يؤمنون بالله تعالى أبدا لأن الله
تعالى علم أنه لا يؤمن من الكفار إلا من قد آمن وذلك أن الله تعالى
أخبر عما وصف به نفسه من الرحمن والرحيم وغير ذلك مما وصف به نفسه
عز وجل وكرر ذكر الجنة والنار فقال الله والوجه الثاني ذكر أمر النعيم
وما يتعالى عنه الواحد القديم وهذه الكرامة مستحيلة من الله
الرحمن الرحيم وكذلك القول في جهات يستحيل أن يقال عن الواحد
فوجه هو ذات الله الأفعال والجوارح والسعي في الأعمال وذلك منفي
عن الله ذي الجلال والوجه الثاني هو أن الله تعالى لما علم أن
الله هو الرحمة والنعيم وهو مما يستحيل على الخالق العليم أن
الأمر الذي لا يجتمع وذلك يتعالى عنه ذو الجلال

نـــص الكتـــاب

obeikandl.com

١ـ باب الرد على من جحد الله وقال بقدم الهواء وغيره من الأشياء

oberlandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

باب الرد على من جحد الله وقال بقدم الهواء[1].

قال المهدى لدين الله، الحسين بن القاسم صلوات الله عليه، فإن سأل بعض الملحدين، أهل الحيرة المتمردين ، **فقال:** ما الدليل **على حدث الهواء؟**

- **قيل له،** ولا قوة إلا بالله: الدليل على حدثه أنه لم يخل من الزمان طرفة عين، ووجدنا الزمان محدثاً، وهو حينئذ سكون الهواء، فعلمنا أن ما لم ينفك من المحدث، ولم يوجد إلا بوجوده أن سبيله فى الحدث كسبيله.
- **فإن قيل:** وما الدليل **على حدث الزمان؟**
- **قيل له،** ولا قوة إلا بالله: الدليل على حدثه أن كل ساعة لها أول وآخر وكل ليلة، وكذلك كل يوم وشهر،فكلما حدثت ساعة انقطعت ، فهذا دليل على حدث ما مضى من الزمان، فقد انقطع وفنى، وما وقع عليه الانقطاع والفناء[2]، فقد تناهى[3]، بأبين البيان وأوضح البرهان.
- **فإن قال:** وما أنكرت من الزمان أن يكون الزمان الذى هو سكون الهواء قديماً لم يزل على ما ترى[4]، ساعة يبقى[5]، بعد ساعة، وساعة قبل ساعة إلى مالا نهاية له؟

---

(١) فى أ : الهوا.
(٢) فى أ : الفنا.
(٣) فى أ : تناها.
(٤) فى أ: نرا.
(٥) فى أ: منعا.

وجهين: إما أن تكون عنيت به الزمان الذى انقطع ومضى وتصرم وفنـــى، وإما أن تكون عنيت غيره، فإن كنت عنيت غيره، فليس كلامنا إلا فيـه، وإن كنت عنيته، فكيف لا تتناهى عند من عقيل من أهل النهى شئ قد وقع عليـه الانقطاع والغناء، وما انقطع وفنى فقد تناهى.

- **ودليل آخر:** إما أن تكون عنيت بقولك: كل ما فنى ومضى من الزمـان الذى هو سكون الهواء، وإما أن تكون عنيت ما بقى منه الآن، فإن كنت تريد[1] ما مضى منه وغبر، فقد أجبت على نفسك من حيث لم تشعر، إن كنت عنيت ما بقى من الدهور، وما هو يمر على الخلـق ويـدور مـن الساعات والأيام والليالى والشهور ، فها هو اليوم يمضى ساعة حادثـة، ويحدث غيرها، فكلها حدثت ساعة، فثبتت ساعة وتناهت، فهذا دليل على ما مضى من سكون الهواء، ولا يزال ذلـك أبـداً بإبقـاء الله ، تبـارك وتعالى، وسنزيد، إن شاء الله، بياناً، ونوضح لك من ذلك هدى وبرهاناً ، ونسأل الله أن يوفقنا فنقول ، إن شاء الله :

ما تقول، أيها السائل، عن حدث الهواء أهو فى ذلك عندك ساكن أم لا؟

- **فإن قال:** ليس بساكن. كابر عقله، واستغنـى عن مناكرته، بجهلة بـأن ٣/ الهواء لا بث غيرزائل، لا يمتنع من لبثه عاقل، ولا يكابر/ فيه عـالم ولا جاهل. وإن أقر بسكونه؛ قيل له: أخبرنا أكله ساكن أم لا؟
- **فإن قال:** إلا بعضه - كذب كذبا بيناً.
- **وإن قال:** بل هو ساكن كله، فللكل نهاية وغاية لا تخلو مـن السـكون؛ والسكون يدل على تناهيه وتحديده، إذ لا يخلو منه، ألا ترى أن الشئ إذا

---

(١) فى أ : مريد.

لم يخل من صفته ، فذلك دليل على حدوده، كمثل اللون والحركة والسكون والمحبة، وغيرهن من الأعراض والكلية والأبعاض.

- **فإن قال:** وما أنكرت من أين يكون الساكن ساكناً إلى مالا نهاية له؟!

- **قيل له،** ولا قوة إلا بالله: كلامك هذا محال باطل، لا يقبله من الناس عاقل، لأن ما صح حدثه فهو كله محدث، ثم نقضت قولك بقولك: لا نهاية له!. لأن الكل دليل على أنه لم يبق منه شئ، حتى حدث بعد عدمه، فبطل ما ادعيت[1]، من قدمه.

- **ودليل آخر:** أن العقل لا يقع إلا على الكل والبعض والطول والعرض، ولا يخلو الهواء من أحد ثلاثة أوجه.

١-إما أن يكون ساكناً كله.

٢-وإما أن يكون بعضه ساكناً وبعضه متحركاً.

٣-وإما أن يكون لا ساكناً ولا متحركاً.

فإن قلت: إنه لا ساكن ولا متحرك. حجدته، وأبطلت ما بالقدم وصفته!. بل أن كنت من المشبهة فقد عبدته.

- **وإن قلت:** بعضه ساكن وبعضه متحرك. فقد حددته وناهيته وقسمته وجزأته[2]، وأجملته وبعضته، لأنه إن كان على ما وصفت، فهو ٤/ على/ ضربين وجزئين موصوفين متناهيين محدودين وحالين مختلفين متغايرين معروفين.

---

(١) فى أ : ادعت.

(٢) فى أ : حريته.

- **فإن قلت:** إنه ساكن كله، فقد أقررت – صاغراً - إذ وصفته بالسكون، فحددته، إذ لم يبق منه السكون شيئاً حتى جرى عليه، ولم ندر منه قليلاً ولا كثيراً، حتى وصل إليه،فانظر أى القولين أولى بالحق،

obeikandl.com

٢ـ باب الدلالة على حدث الأجسام

obeikandl.com

- **ودليل آخر**، يقال لمن قال / **بقدم الأجسام**: أخبرنا ما أعظم الأجسام وأجلها؟! فلابد أن يقول : الأرض والسماء.
- **فيقال له: أهما فى الهواء أم لا؟!**
- **فإن قال:** لا. كذب وإن أقر بذلك صدق، ووجد الأجسام لا تنفك من الهواء ، وما لم ينفك من المحدث، ولم يوجد إلا بوجوده فهو مثله مكون بكونه.
- **فإن قال:** وما أنكرت من أن تكون/ الأرض منحدرة سفلاً إلى ما لا يتناهى، وكذلك السماء مصعدة؟!
- **قيل له**، ولا قوة إلا بالله: هذا محال باطل فاسد، وذلك أنهما مخلوقتان.
- **فإن قال:** وما الدليل على ما ادعيت من حدثهما؟!
- **قيل له**، ولا قوة إلا بالله، الدليل على حدثهما أنهما لم ينفكا قط من الهواء الذى بينهما، وقد أوضحنا حدث الهواء ، فيما تقدم من كلامنا، وما لم ينفك من المحدث، ولم يكن قبله، فسبيله فى الحدث سبيله.
- ٥/ **فإن قال:** وما أنكرت من أن يكون/ الهواء أحدث بعدهما، ولم يكن معهما ولا قبلهما، أولا هو فى القدم مثلهما.

- **قيل له، ولا قوة إلا بالله:** أنكرنا ذلك، لأن الأرض لم تخل من التحت، ولم تخل[1] من التباعد والتباين، ولم تخل السماء من الارتفاع، ولم تخل الأرض من الاتضاح وما فوق[2] الأرض فهو الهواء، وكذلك هو تحت السماء، وهو الماثل[3] بينهما، وهو سبب تباعدهما، وهو الفرق بينهما،

---

(١) فى أ : تخلو.
(٢) فى الأصل : وفوق.
(٣) فى الأصل غير مقروء.

وأيضا فإنك مقر بأزلية تباينهما، وهذا محال، لما بينا من كونهما ووجودهما بوجود هذا الفضاء.

- **فإن قال:** وما أنكرت من أن يكونا، فى حال أزليتهما، غير مفترقين ثم افترقا؟!
- **قيل له، ولا قوة إلا بالله:** هذه حجة عليك لا لك، احتججت بها على نفسك، لأن حدث الأفتراق دليل على المفرق، وافتراقهما بعد اجتماعهما دليل على مفرقهما بعد جمعه، وتنقلهما دليل على صنعه.

ودليل آخر، أنك قلت: افترقتا. والافتراق لا يكون إلا فى مكان، كما وصفنا ، وكذلك الاجتماع، ووجود المكان دليل على حدثهما، إذ لم يخل[1] هذا المكان المحدث، الذى بينا حدثه ، فيما مضى من كلامنا، وإذا لم يسبقه المحدث- أعنى الهواء - ولم يكونا قبله، فسبيلهما فى الحدث سبيله.

ودليل آخر، أنك قلت: افترقتا. والافتراق لا يكون إلا بعد الاجتماع، ٦/وإذا كان للاجتماع آخر فله أول، ويستحيل/ آخر بلا أول، ألا ترى إليهما إذا كان لا يزالا مختلفين ثم افترقتا. فقد بطل ما مضى من كثرة سكونهما واجتماعهما، ولا يخلو - هذا الباطل الذى بطل وهو سكونهما - من أن يكون بطل كله أو بطل بعضه.

- **فإن قلت:** بطل بعضه. فهذا محال، لأنك أقررت بحركة افتراقهما بعد سكون اجتماعهما، وإذ تحركتا فقد بطل كل ما مضى من سكونهما، وإذا بطل جميع السكون والساعات الحادثة، فقد صح أن لهما عدداً، وإذا صح بأن للساعات عدداً محدثاً، وصح بعد حدوثه انقطاع جميعه والأرض

---

(١) فى أ : يخلو.

وانقطاعهما بعد حدوثها[1].

ودليل آخر، أن جميع الأجسام من الأرض والسماء وغيرهما من الرياح والماء وجميع ما خلق الله، سبحانه ، وبرأ ودبر وذرأ، لا يوجد إلا فى وقت وساعات، لأن الأجسام لا تنفك من السكون والحركات وكل متحوك أو ساكن لا ينفك من أقل قليل الأوقات، وما لم ينفك من الوقت والزمان فهو مثله فى الحدث والبرهان، لأنا قد أوضحنا حدث الأزمان، فانظر كل علة من العلل وغرض من[2]، الأغراض، فلن تجده إلا فى جسم من الأجسام، وما لم يوجد إلا بوجود الجسم فلم يسبق الأجسام.

٧/ وكيف يسبق ما لم يوجد إلا فيه، ولا يستقيم/ إلا به وعليه، وما لولا هو لما وجد أبد الأبد، ولما رآه من الخلق أحد، مثل اللون لا يوجد أبداً إلا فى جسم، فإذا أصح حدث الجسم المنفرد بذاته، فعرضه الذى لا يقوم بنفسه ولا يوجد إلا متعلقاً به أجدر أن يكون محدثاً، وأحرى بأن يكون مصنوعاً مدبراً.

ثم انظر، إذا أردت أن تفرق حدث جميع الأشياء ، فلن تجده، إن شاء الله، إلا على ما ذكرنا متحركاً أو ساكناً.

ثم انظر ، إلى الحركة والسكون فلن تجدهما أبداً إلا فى وقت، ولو قل الوقت. ثم انظر إلى يومك وأمسك، وافرق بين ما تأمل من التفاوتين الماضى السالك من عمرك الغائب الذى مضى، فإنك تجد كل يوم من أيامك

---

(١) يبدو أن العبارة قلقة غير أنه يقصد بيان مطلق الحدوث.
(٢) فى أ : فمن.

السابقة الماضية الذاهبة من عمرك الفانية ، قد تضمنها الفناء وكذلك تضمن غيرها.

ثم انظر الفناء أوقع عليها كلها أم لا؟! فإنك إن نظرت وجدت كل ساعة من الساعات والأزمنة الماضية الخالية، لم ينقطع آخرها إلا بعد انقطاع أولها، ولم يحدث آخرها ألا بعد حدوث أولها، وكل أول من الزمان حدث وصح حدثه، فلم يحدث آخره حتى فنى أوله، وما لم ينفك من الحدث والفناء[1]، فقد تناهى[2] منه كل ما مضى، وبلغ غايته وانقضى، فلم يوجد الزمان إلا على هذين الحالين المتناهيين الحدوث والفناء، وما صح /٨/حدثه/ ومبتداه، وصح فناؤه ومنتهاه، ولم توجد الأجسام جميعاً إلا بوجود فسبيلها فى الحدث كسبيله[3].

ودليل آخر، لما نظرنا إلى الزمان والهواء ، فأمكن فى المعقول أن ينفرا من الأجسام، علمنا، إذ ذلك، أنهما كانا قبل الأشياء، ثم نظرنا إلى الأشياء فإذا هى لا تنفك منهما، ولا يجوز، فى المعقول، أن يكون قبلهما، فعلمنا أن الأشياء محتاجه إليهما مبتنية - فى الشاهد - عليهما، فلما علمنا أن الأشياء لم تكن قبلهما ، ولم توجد إلا بوجودهما رجعنا إلى الطلب لحدوثهما والاستدراك على صنع الله فيهما، فنظرنا إلى أجلهما وأوضحهما، وهو الهواء هل ينفك - طرفة عين أو أقل منها -من الزمان؟ فإذا هو لا ينفك منه أصلاً فرجعنا بطلب الدليل على حدث - هذا الذى لا ينفك منه - شئ من الأشياء.

---

(١) فى أ : الفنى.
(٢) فى أ : تناها.
(٣) فى أ : فناء.

فوجدنا -والحمد لله - فى ذلك ما كفانا، ووضح لنا فشفانا، وهو ما ذكرنا، ولولا خشية التطويل والإكثار، لشرحنا من ذلك ما لابد بدفعه عاقل أبداً بإنكار ، ثم علمنا أن الله خلقهما جميعاً[1] مع إذ لم ينفك من الزمان، الهواء ثم نظرنا إلى الزمان فإذا هو غرض من أجل والأغراض دلنا الله به على حدوث جميع الأجسام، وإبطال دعاوى الطغام أهل التكمه فى ٩/الإظلام/ وأشباه عجم الأنعام.

ولما نظرنا إلى هذا الغرض الجليل، لم يكن بد له من جسم، فإذا جسمه هذا المكان. فيا لمن قال بعدم الطينة الويل، كيف تكون قديمة مع ما بينا من صنع الله الجليل؟!.. فانظر - أيها المسترشد - إلى ما ذكرنا، فلن تجده بخلاف ما قلنا، ولن يقدر أحد من الملحدين على فساد ما به دنا، وعلى الله اعتمدنا، وهو حسبنا ووليّنا وخالقنا ومصورنا، وإلهنا ومدبرنا ومخترعنا ومقدرنا ورازقنا ومعمرنا وآخرنا وزاجرنا وواعدنا وموعدنا وموفقنا ومسددنا، ومميتنا ومحيينا وممرضنا وشافينا ومطعمنا وساقينا.

والذى نرجو[2]، أن يغفر لنا ذنوبنا ويعفو عن هفواتنا، ويتجاوز عن سيئاتنا وقبيح أفعالنا وعظيم جرمنا وسيئ أعمالنا، وأن يبارك لنا فى قصر أعمارنا ونزع أرواحنا من أجسادنا، وأن لا يخرج أنفسنا من بعد رضائه عنا فى سبيله، بعد اجتهادنا، ونسأله أن يتفضل بذلك علينا ، وأن يجعل آخر محنتنا فى أعظم ما كلفنا وأزكى ما به أمرنا، وأن يجعل عند ذلك ذكره آخر كلامنا، واليقين به آخر اعتقادنا ، والبذل لأجسادنا فى سبيله، والغضب له آخر أعمالنا، ولقاءه آخر مالنا، وثوابه آخر سرورنا، وألم الموت آخر ١٠/محنتنا، والأجداث/ أول راحتنا، والطاعة أكبر همنا، والعداوة لأعدائه

---

(١) فى الأصل : جميعاً مع.
(٢) فى أ : نرجوا.

آخر حقدنا، والموالاه لأوليائه آخر ودنا وأن لا إله إلا هو وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن يجعلنا من رفاق نبيه وأحبابه وجيرانه وأوليائه، وأن ينجينا عذابه، فلا قوة لنا إلا به، فما هى إلا مدة سنسأل فيها عن النعيم، إن لم نجتهد فى الطلب غاية الاجتهاد، ونشمر قبل رحلتنا وطلب الزاد.

فيا عجباً لمن يشتغل عما له خلق بالدنيا، وقد وعد بالموت والفناء، ووعد بعد ذلك بالثواب الجزيل إن عمل، أو بالعقاب الجليل إن غفل. ويا عجباً كيف آثر ما هو عنه زائل على ما هو أحد يوميه إليه راحل ، وياعجباً له كيف يطيل أمله وهو ينتظر دون ذلك أجله، وياعجباً له كيف يخرب آخرته الباقية، بعمران دنياه الفانية، وياعجباً له كيف يعمر دار غيره ويهدم داره، وياعجباً له كيف يحكم على عقله هواه ، ويؤثر على آخرته دنياه، وياعجباً له كيف يشيد محل رحلته، ويترك محل إقامته، وياعجباً له كيف يصلح مال غيره ويفسد ما له، ويا عجباً له كيف يجمع ما ينفع غيره ويترك ما ينفعه، وياعجباً له كيف يجمع ما هو عنه هالك، وما هو لغيره تارك.

١١/ وسنعود إلى بيان صنع/ الله وحكمته، وما هو أكثر من الأدلة برحمته، فنقول : **إن أعظم الدلائل على الله، سبحانه** وعز عن كل شأن شأنه ، ما فطر من الأرضين والسماوات العلا وصنع منهما، تبارك وتعالى.

فإن سأل سائل عن بيان صنع الله فيهما وتدبيره وحكمته وتقديره، فجوابنا له فى ذلك وبالله نستعين ما شاهدنا من إثبات السماوات بلا عمد، وإثبات الأرضين/ ففى ذلك أدل الدلائل على رب العالمين.

ودليل آخر: أنا نظرنا إليهما، فإذا هما موصولتان مجتمعتان، ولابد لكل توصيل من موصل، فلا بد لكل تفصيل من مفصل، ولابد لكل مجموع من جامع، ولكل مصنوع محدث من صانع، وهو الله رب العالمين.

- **فإن قال:** وما أنكرت من أن تكون الأرض لا نهاية لها، وكذلك السماء؟.
- **قيل له،** ولا قوة إلا بالله: أنكرنا ذلك، لأن ما صح حدثه فقد صح منتهاه، ولابد لكل مخلوق من غاية يتناهى إليها وصفه لا يوجد إلا عليها، إذ لابد للمخلوق من تحديد محدد والإحاطة بعلمه، ولابد له من منقطع يدل على قاطعه، وحدود يدل على محدوده وصانعه، وسنبين من ذلك، إن شاء الله تعالى، طرفا نكتفى به عن التطويل من صنع الله العظيم الجليل، وكذلك ١٢/ أنا نظرنا إلى الأرض فإذا/ هى مختلفة الألوان والأقدار، فعلمنا أن لها صانعاً خالقاً بين أحنائها، ولو كانت قديمة لا تفقت ولما تفاوتت ولا اختلفت، لأن القديم لا فرق بينه فى حال من الأحوال والمحدث، فقد فرق بينه ذو الجلال.

والدليل على نهاية جميع المصنوعات من الأهوية والأرض والسماوات، أنها لا تخلو من أحد وجهين.

١-إما أن يكون صانعها فرغ من صنعتها وقطعها.

٢-وإما أن تكون ناقصة بعدما ابتدعها.

فإن كان الصانع قد أتم صنعه، وفرغ من العالم وقطعه، فقد صح تناهيه لانقطاعه وحدده الصانع بعد ابتداعه، وإن كان هذا العالم محتاجاً إلى النظام، مناقصة ذو الجلال والإكرام، وما كان ناقصاً عن الكمال فهو مقطوع، وما كان له منقطع فهو مصنوع، والله محدثه وصانعه ومحدده وقاطعه.

- **فإن قال:** فكيف تثبت الأرض، على ثقلها، بغير عمد يعمدها؟!
- **قيل له،** ولا قوة إلا بالله: قد قيل فى ذلك : إنها ثبتت من قبل الاعتدال، ثم هذا نقول من أحول[1]، المحال، لأنا نجد ما كان ثقيلا لا يثبت بغير عمد، وإن كان معتدلا.

١٣/ وقيل أيضا: إنها على لجج البحار، ويستحيل كون الأرض على الأنهار، لما طبعت/ عليه من الانحدار، وقلة اللبث والقرار.

- **وقيل:** إنها لم تزل تهوى بما عليها، من أجل قوتها وثقلها، وهذا من أضعف المقال، وهو قول الزنادقة الجهال الكفرة الفجرة الضلال ، أنها لم تزل تهوى. وهذا مما[2] لا يقول به أحد يعقل ولا يسعى، ولا يتكلم بهذا إلا من سلب عقله، وعظم موته وجهله، وجل هلاكه وخبله؛ لأنها لو كانت تحرك على عظمها وجلتها ، لهلك من على ظهرها، ولما فرق بين الحركة والسكون، إذ كانت حركتها لا ترى، فجعلوا السكون حركة، والحركة سكوناً، والظنون عقولاً والعقول ظنوناً ، فزادهم الله عما وخبلا وضلالة وغياً ، فنالهم الويل الطويل، والعذاب والخزى الجليل.

أما علموا - لا علمهم الله رشدا ولا وفقهم لخير أبداً- أن الحركة هى الزوال، وأن السكون هو اللبث، وشتان بين الهدوء والجمود، والحركة والجثة/ أو ما عملوا **أن حقيقة الحركة هى زوال الجسم واختفاقه، وحقيقة السكون تخلف الجسم ولبثه واعتناقه.**

---

(١) فى أ : أحوال.
(٢) فى أ : فما.

أو ما علموا - أيضاً - أن الثقيل كلما ثقل كان أعظم لزواله، وأسرع لهويه وانتقاله، فقد رأينا بعقولنا وشاهدنا بأبصارنا الحجر أسرع هويا في الجو من الطير والتراب، ورأينا التراب أسرع انحداراً من الخفيف ، فكيف ١٤/ لحقت الحجر الأرض ، والأرض أثقل منها/ والثقيل أسرع مضياً وانحداراً، وأقل لبثاً وقراراً وأجدر بالسقوط والانحدار، وأبعد من اللبث والقرار؟!

ثم نظرنا إلى الريشة، فإذا هى أخف الأشياء، ورأيناها تلحق الأرض على ضعفها، وقلة انحدارها وموتها.

ودليل آخر: أن الجسم إذا هوى سفلاً، أو من السفل علواً، أو من غيرهما من الجهات، لا يخلو فى حركته من أن يكون قطع أماكنا متناهية ، أو قطع أماكنا لا نهاية لها، أو لم يقطع بحركته أماكنا.

- فإن قلت: إنه لم يقطع أماكنا جملته ساكناً، لأن المتحرك لا يتحرك إلا فى مكان، ولابد
المتحرك يقطع مسافة متناهية.

- وإن قلت: إنه قطع أماكنا لا نهاية لها. فهذا محال، لأن قولك : قطع أماكنا. توجب نهاية الأماكن، لأن القطع جرى عليها، وإذا قطعت فقد تناهى قاطعها.

- ثم قولك: لا نهاية . نقض لإقرارك الأول، وهو قولك فى القطع، وإذا صح تناهى الأماكن بقطع الجسم لها، فقد صح - أيضاً - تناهى حركته وغايتها إذ لا توجد الحركة إلا فى المكان المقطوع.

وإن رجعت إلى الحق، فقلت: بل قطع أماكنا متناهية. علمت أنه - إن شاء الله- على ما وصفنا ، وأنه بأيقن اليقين على ما قلنا، ألا ترى أن
١٥/ الأرض والرياح إذا كانتا بزعمهم لم تزل حركتهما/ تقطع مكانا دون مكان، لا يخلوان من المكان طرفة عين، ولا أقل منها، وإذاً إن كانتا غير خاليتين من المكان ولم توجد حركتهما إلا فيه من أن يكونا قطعتاه أو لم يقطعاه ، فإن لم يجر عليه القطع منهما، فقد عدمت حركتهما، وصح سكونهما ، لأن الأرض - بزعمهم- إذا هوت فلا بد أن تقطع بهويتها ما غبرت، وإذا صح أنها لا توجد إلا فى الآخر، أولا تقطع إلا ما أتت عليه من الهواء، وكانت حركتها لا توجد إلا فى المقطوع عند سيرها ، صح تناهى المكان لقطعها له، وصح نهايته إذ لم تنفك من المكان المعبور، ولم توجد إلا بوجوده عند الهواء والمسير، وفى ذلك - والحمد لله - من الأدلة والبراهين، أكثر مما ذكرنا من التبيين.

فما طلبنا من ذلك شيئاً يسيراً إلا وجدنا - بمن الله - كثيراً، وإذا صح تناهى الأرض بالأدلة الواضحة، فقد صح أنها لم تثبت على ثقلها، إلا بلطف مدبرها وخالقها ومصورها، وجاعلها ومخترعها ومفتطرها وصانعها.

والقول فى السماء كالقول فى الأرض عندنا، فنسأل الله أن يوفقنا، وأن يغفر لنا ذنوبنا، والمعارف عندنا من أراد طريق النجاة - فليست إلا بالتسليم للمعقول وجهاد التقى بالقبول، والاعتماد بأمر علام الغيوب، وإكذاب
١٦/خواطر القلوب؛ لأن العاقل إذا ورد عليه/شيئان: أحدهما ظن، والأخر يقين، وجب عليه قبول أصدقهما ، وإبطال أفسدهما بأحقهما، فإن الحق لا يشبه المحال، والهدى لا يماثل الضلال، والعلم لا يقاس بالجهل، والظن لا

يمثل بالعقل، والصحة لا توازن السقم، والدليل أولى[1] من الوهم، وصحة الخبر أولى من وساوس الحيرة، فيجب على المتعبد أن ينظر الأمر من المتناهيين المختلفين المتغايرين المتباعدين المتنافرين، فليستمع قولهما وينظر دلالتهما، ثم ينظر اختلافهما، فلن يشتبه ضدان أبداً، فليأخذ بأوضحهما دليلاً، وأنورهما سبيلاً، ويجاهد نفسه على قبوله أشد الجهاد، ويحرس قلبه من الفساد، ولا يبرح صابراً مصطبراً، متيقظاً من السهو متفكراً، فلن يشتبه الحق والباطل عنده إن عقل، ولن يهدى إلى الرشد، إن غفل.

فرحم الله عبداً نظر لنفسه فى أوان المهل، قبل حضور ما وعد به من الأجل، فلعمرى لو لم يكن لنا من النظر إلا ما فى أنفسنا من الآيات والعبر، لكان لنا فى ذلك كافية، وأدلة واضحة شافية، وبراهين جليلة باهرة، وآيات عظيمة قاهرة ، وأنوار مبصرة زاهرة، من خلق الذكر والأنثى، من نطفة من منى تمنى، لا سمع فيها ولا بصر، ولا عقل ولا شعر ولا بشر ١٧/ ولا حياة ولا حكمة، ولا إرادة ولا همة، فبينما هو كذلك/ إذ هو بشر سوى حكيم، عالم عاقل حى سميع بصير قوى أجزاؤه محكمة متقنة مفصلة، وأيات محبوكة متسقة موصلة، ومفاصل مجموعة معتملة، وحكمة بالغة، معتمدة مأسورة مشدودة مؤكدة.

تدل على حكمة صانعها وتشهد بالفطرة لفاطرها، وتبين لناظرها لا يمتنع عاقل حكيم من التصديق بأن تأليفها بعد العدم يدل على مؤلفها، وتصريف فطرتها دليل مصرفها، وإتقان ما لم يكن متقناً منها دليل على متقنها، وتفصيل أجزائها دليل على مفصلها، وتوصيل آلائها دليل على

---

(١) فى أ: أولاً.

موصفها، فكفى[1] لعمري بوجودها بعد عدمها، دليلاً على صانعها ، وكفى بصنع أدواتها دليلاً على علم الصانع بها، وكفى بوجود الأرزاق دليلاً على الرازق الواحد الخلاق، وكفى بما نشاهد من النعم المنزلة من السماء، المبسوطة لنا ولأنعامنا، دليلاً على المنعم علينا، وكفى بما نشاهد من الأجسام فى الأرزاق دليلاً على المحسن علينا - فلعمرى - لفى أقل من هذا ما دل على الله، تبارك وتعالى، فيالها نعماً عظمت، وأيادياً جلت وجسمت، ويالها فضائل كثرت عن التعديد، وزادت على كل مزيد، والحمد لله الواحد الحميد العدل الخالق المجيد، فلن نذكر من حكمته إلا قليلاً - فسبحان الله بكرة ١٨/وأصيلاً والحمد لله كثيراً/ والله أكبر كبيراً أولاً تكون نعمة صح حدثها إلا من منعم ولا كرم صح من بعد العدم إلا من متكرم، ولا حكمة بالغة إلا من حكيم، كما لا يكون العلم إلا من عليم، ولا الحلم ، فى الشاهد إلا من حليم ، ولا يجعل الشئ للشئ، والمعنى للمعنى، إلا عالم بفاقة المخلوق إلى ما جعل وبنى[2].

ألا ترى إلى ما بث الله من الخلق، وما بسط لهم بعد خلقهم من الرزق، الذى لولا هو لهلكوا ودمروا، ولما تناسلوا ولا كثروا، ولما تم بقاء ولا حيروا ، فلعلمه بفاقتهم رزقهم، ولإتقان الحكمة خلقهم ، ولحسن التدبير فطرهم، وبالطاعة والرشد أمرهم، وعن الفواحش زجرهم، وللكفر حذرهم وبالثواب وعدهم.

فسبحان من لا تحصى آياته، ولا تنقطع أبداً دلالاته ، فلو لم يكن لنا من الآيات إلا ما ذكرنا من صنع الله فى الحيوانات، لكان ذلك عليه دليلاً، ولكان علماً عظيماً جليلاً، من النطف الحقيرة خلائقاً مثبوثة كثيرة، لا

---

(١) فى أ: فكفا.
(٢) فى أ: بما.

يحصيها إلا خالقها ومبتدعها ورازقها. وما جعل من ذكورها وإناثها لتكثير نسلها وإحداثها، ثم جعل فى الذكور من الشهوة للإناث، ما جعله شيئا للجعل والأحداث، وجعل النسل فى أصلاب الذكور لتمام الحكمة والتدبير، ثم جعل
١٩/لذلك النسل مسالكا إلى أوصال الإناث فاتصل بإذن موصلة/ وانفصل من الأصلاب بمشيئة الله رب الأرباب، فأحسن الصور فى الأرحام بإكمالها بعد أخذها من الأصلاب وإنزالها، ثم أخرجها من بطون الأمهات ، وركبها للأغذية واللذات فجعل لتلك النسول قبل إخراجها أغذية لعلمه بفاقتها، وجعل لتلك الأغذية من ألبان أمهاتها المركبة لها لهم فى أجسادها، لعلمه بضعف الأطفال عن غيرها، مما نغتذى به بعد كبرها، فجعل غذاء الصغير بلطفه، غير غذاء الكبير، لما علم من طفولته وضعفه، ثم ألهم هذه النسول رضع أغذيتها، ليتم بذلك ما أراد من حياتها.

فيا عجباً لأطفال البهائم العجم، التى لا تعى ولا تعقل كباراً، فكيف بالصغار كيف اهتدت لأماكن أغذيتها؟! أجل إن ذلك لمن عثرها لضعفها وصغرها، حتى كأن قد علمت ذلك علماً يقيناً أوجدت عليه، أو قيدت قوداً إليه، ولما علم الله ، عز وجل، ما ركب من خلقه وجبل، وما نزل من الأرزاق وجعل، علم أن تلك الأغذية لا تتم إلا بالوصول إلى الأجساد، ومباشرة البطون والأكباد، فجعل، سبحانه، لذلك مسلكاً فأوصله وركبه ، لعلمه بفاقتهم، وجعله، ثم بسط الرزق ونزله.

فكم مخلوق عجيب الخلقه خلقه، ومرزوق لا يحمل رزقه، فالحمد لله
٢٠/ الذى تفضل علينا بنشأته وخلقه، وبسط لنا الكفاية/ من رزقه، ثم علم، عز وجل، بما خلق وفطر، وجعل من الحكمة ودبر، وعلم بفاقة المخلوق إلى مخارج الأغذية التى لولا مخارجها ما لبث المخلوق حياً ولا بقى من الدهر

شيئاً، إلا وقتا يسيراً، ثم تصير نعمته عليه تهلكة وتدميراً، فجعل سبحانه ، لما علم بمولجه مخارجاً لفاقة المخلوق إلى مخارجه.

ثم جعل للمتعبدين عقولاً، لتكون لهم عليه دليلاً، فسبحان من دلنا إلى معرفته ، وجعل لنا العقول برحمته، ثم جعل لنا حواسا خمساً ،عيانا وسمعاً وذوقا وشما ولمسا، فجعل العيان لدرك الهيئات، والأسماع لدرك الأصوات، والذوق لدرك المطعومات، والشم للروائح المختلفات من الخبائث والطيبات، وجعل اللمس لدرك أعراض، المجسمات من الحر والبرد، واللين والخشونات، وجعل الأجسام وما فيها من المفاصل للحركات، ودليلاً على حكمة خاطر السموات ، وجعل العقول تتمييز الأمور، ومعرفة الخيرات والسرور، ثم لم يكلنا إلى ذلك دون أن يرسل[1] إلينا الرسل والنبيين، مذكرين لنا من الغفلة، مخبرين لما خلقنا له من النعيم، والفضل من الله والكرم والتعبد للفرق بين المطيعين والعاصيين، إذ لم يكن من حكمة الحكيم أن تساوى بين المحسنين والمسيئين.

٢١ / فيا خالق الخلق، ويا/ باسط الرزق، أسألك أن تجعل آخر حياتى وحضور وفاتى على أكمل ما يكون من طاعتك، واتباع مرضاتك، والغضب لك، حتى تبلغنى بفضلك ما له خلقتنى، وأن تختار لى بعلمك، وتقبضنى على أيقن يقين[2]، وتوفانى يامولاى على شهادة أن لا إله إلا أنت الحق اليقين، الصمد الواحد المبين، وأن ترزقنى الحياة ما كان الحياة خيراً لى، وأن تمنن على بالوفاة فى وقت طلبتى للنجاة ، وسلوك سبيل الهداية، حتى تتم نعمتك على عندى ولدى، فقد علمت يامولاى ندمى على ما هو من

---

(١) فى الأصل: أرسل.
(٢) فى الأصل : يفين.

غفلتى فأسألك يامولاى سؤال من عرفك، واستدل عليك، فأيقن بك أن تقيلنى ما كان من عثرتى ، وأن تغفر لى ما علمت من خطيئتى، وأن تجاوز عذرتى، فها أنا يامولاى مستعبد مستعيد إليك، ومتوكل فى كل أمورى عليك ، طارح لنفسى فى يديك، فإن عفوت يامولاى وغفرت، وعدت بفضلك، فقد نجوت، وإن لم تغفر لى ما سلف فمن غيرك يامولاى يغفر لى؟!

وإن لم تهدنى فمن غيرك يهدينى أو يوفقنى أو يرشدنى؟! وإن لم تنظر إلى فمن ينظر إلى ، وإن لم تجب دعائى، فمن أدعو، وإن لم تنجنى فكيف أنجو، وإن لم أرجك، فمن أرجو ، وإن لم أحبك فمن أحب، وإن لم أطلب منك، فمن أطلب وإن لم أهرب إليك، فإلى من أهرب؟!

وصلى الله على محمد، وآله وسلم تسليماً .